

قصة حياتي

الإمام

الدكتور عبد الحليم محمود

أحمد بن محمد بن عبد الحليم



Bibliotheca Alexandrina



0007123



دار المعارف

الحمد لله رب

هذه حياتي

الإمام
دكتور عبد الحلیم محمود

الحمد لله

هذه حياتي

الطبعة الثالثة





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اتَّبَعَ هَدْيِهِ إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ .

« رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا » .



❀ مقدمة ❀

في مساء الثلاثاء - الثالث والعشرين من شوال سنة ١٣٩٥ هـ الموافق الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٧٥ م - كنت في طريقى إلى الهند . وبينما كانت الطائرة تحلق في الأجواء - كان تفكيرى كله يحلق في جو : « الحمد لله » !

لقد أخذت أسباب الحمد - في حياتى - تتوالى على ذهنى : أستعرضها الواحد تلو الآخر ، ملاحظاً لطف الله - تعالى - الخفى ، ولطفه - سبحانه - الظاهر . !

الطائرة تسبح في فضاء الله الواسع وأنا منغمس بخيالى في لطائف الحمد لله ، وفي إمداد الله تعالى لى بالنعمة ! .

وبينا أنا في هذا الاستغراق لمع في ذهنى خاطر . .

أليس من شكر الله تعالى - على ما أنعم - أن أعترف في كتاب بفضلله ونعمه ؟ وأن أضمن هذا الكتاب خلاصة ما هدانى الله تعالى إليه ، من آراء بثتها في مختلف الكتب ، والمقالات والمحاضرات . ؟ إن تاريخ كل إنسان ملىء بالفوائد .

قد تكون حوادث حدثت ، أو آراء قيلت .

إنها ماديات ومعنويات ، وهى أشكال تمر ، وظواهر لها وزنها وهى تجارب وملاحظات قد يفيد منها الآخرون ، أو يروّحون على أنفسهم بقراءتها ، ويمضون أوقاتهم في تسلية لا تكون مضيعة للوقت .

وفي فضاء الله الواسع ، وبينما كانت الطائرة في سيرها السريع نحو الهدف ، كنت أنا بين القلم والقرطاس أنخطط لمنهج الكتاب ! وأذكر أن الرئيس « ابن سينا » حينما كان يعزم على تأليف كتاب : كان يعتكف - يومين أو ثلاثة فقط - اعتكافاً كاملاً ، أو شبه كامل ، ويأخذ في وضع عناوين للأجزاء ، جاعلاً لكل جزء دقراً ، ثم يأخذ في وضع عناوين للأبواب - في ثنايا الأجزاء - ويترك في الدفاتر فراغاً بين الباب والباب ، ثم يأخذ في وضع عناوين الفصول في الأبواب ، تاركاً فراغاً بين كل فصل وفصل ، بما يقدر أنه يكفي للفصل ، ثم يأخذ في وضع إشارات ساحرة لما عساه أن يكون فقرات . ثم يخرج من معتكفه معتبراً أن ما بقي من الكتاب إنما هو تشطيه فحسب وأنه في الوضع . « السينوي » قد انتهى من تأليفه . وبعد ذلك يحمل معه الكتاب أينما سار . فيكتب - بحسب الظروف - كلمة هنا ، وكلمة هناك : في هذا الفصل ، أو ذاك ، من أواخر الكتاب ، أو من منتصفه ، أو من أوله بحسب الفكرة المواتية !

وانتهى اعتكافي ، وقد أوشكت الطائرة على الوصول إلى الغاية .

وحملت التخطيط معي .

وفي صباح الاثنين - السادس من ذي القعدة سنة ١٣٩٥ هـ - الموافق للعاشر من نوفمبر سنة ١٩٧٥ م - تذكرت التخطيط بعد صلاة الفجر في « مدراس » من بلاد الهند ، فأخذت القلم وجلست في شرفة الفندق ، وبدأت أكتب !

وقد علمتني التجارب الماضية في التأليف أن طريقة « ابن سينا » -

- مع بعض التعديل بالنسبة لى - من خير الطرق :

فالإنسان تختلف استعداداته ، وتختلف إمكاناته ، من آنٍ لآخر ،
ومن الخير أن يعمل - فى مختلف الظروف ، العمل الميسور له .

ولقد كان « ابن سينا » يكتب ، لا يستند إلى هذا المرجع أو ذاك :
ينقل منه ، أو يعزو إليه .

أما أنا ؛ فقد كنت أحتاج دائماً إلى مراجع .

وهذه المراجع أراجعها ، وأضع - بين قوسين - المهم منها ، ثم
ألمس نقله ، فى قصاصات من الورق .

ويتجمع عندى مئات من هذه القصاصات : فأرتبها فصولاً ،
ثم أرتب الفصول ترتيباً متوالياً .

ثم أرتب قصاصات كل فصل .

ثم أكتب لا ألزم ترتيب الفصول الذى وضعته .

وربما بدا لى بعد الفراغ من الكتاب أن أحدث تغييراً فى ترتيب
الفصول .

وقد يتساءل القارئ عن استخدامى للقصاصات فى كل فصل ؟

وما كان استخدامى لها إلا لإثارة الطريق فى تفكيرى :

فقد تكون القصاصات موضع نقد !

وقد تكون موضع إهمال .

وقد تكون موضع استثناس لما أرى .

وقد أوردتها لأستنتج منها جواً كان يعيشه المؤلف الذى أكتب عنه ،
أو لأستنتج منها فكرته .

ولا بد - في كل الأحوال - من أن يعزو المؤلف النص إلى قائله .
ولكن هذا الكتاب الذي بدأته - بتوفيق الله - لا أحتاج فيه إلى
هذه العملية - عملية القصاصات والمراجع - في استفاضة .
إنه سرد لحياتي ، يسير معها في تتبعها .
وهو ليس سرداً لحياتي المادية فحسب . إن هذه الحياة المادية
لم تأخذ منه إلا حجماً ضئيلاً .
إنه تاريخ لحياتي الفكرية على الخصوص .
وهو خواطر تمر في أثناء الكتابة .
وهو محاولة لبيان بعض الزوايا من آرائي ، وكتبي الماضية .
أضعها مرة أخرى بين يدي القارئ ، لما أرى لها من أهمية خاصة .
إنه قصة فكر قبل أن يكون قصة حياة .
قصة فكر ، حاول صاحبه أن يصل جاهداً إلى الصراط المستقيم ،
وأن يشرح ما وصل إليه للناس . وقد تعمدت الاستطراد تعمداً ، وذلك
لأنشر هذا الرأي أو ذاك ، مما آمنت به ، سواء أنشرته من قبل ، أم لم
أنشره ، ويمكنني أن أقول :
إني أعيد في هذا الكتاب تقييم حياتي .
أعيد هذا التقييم لنفسي بعد أن عشت هذه الحياة ،
وأعيده للناس عسى أن يكون لهم في حياتي بعض ما يأخذونه ،
أو يكون لهم فيه مصدر للتأمل ، والتفكير .
والله أرجو أن يجعله مفيداً لكل من قرأه ، إنه سميع قريب مجيب .



رَبُّعِ قَرِيبٍ مِنْ حَيَاتِي .. تَلْمِيزًا



الفصل الأول

عن أحمد



ولا مناص من أن أفتح الكتاب بفصل عن الحمد :

الحمد لله رب العالمين :

إن الحمد الذى افتتح الله به الفاتحة ، أى افتتح به القرآن الكريم ،
مشيراً إلى العلة - وهى التربية التى من شأنها أن تهذب ، وأن تسير
بالمربى نحو الكمال - التربية أو السير نحو الكمال لكل عالم ،
لجميع العالمين - شعار المؤمن الصادق .

« الحمد لله رب العالمين » .

الحمد لله المربى لجميع العوالم ، السائر بهم نحو الكمال بحسب
استعداد كل ، واستجابته . ومن أجل ذلك ، بل من أجل كماله سبحانه
فى نفسه ، كان له الحمد فى السموات والأرض .

« وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ^(١) » .

« فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ ، وَرَبِّ الْأَرْضِ ، رَبِّ الْعَالَمِينَ ^(٢) » .

وكان له الحمد فى الأولى والآخرة .

« وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْحُكْمُ

(١) الروم : ١٨ .

(٢) الجاثية : ٣٦ .

وإليه تُرْجَعُونَ^(١) .

ومن أجل أنواع الحمد ، وأرقها ، وأرقاها ، وأنفسها : الحمد الذي ينبعث من نفس الإنسان ، من أجل كمال الله سبحانه ، وقد وردت في القرآن الكريم نماذج لذلك :

يقول الله تعالى :

« وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ ، وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا^(٢) . »

ويلى ذلك الحمد على نعمة الهداية ، وعلى إنزال مصدرها ومنبعها : « القرآن الكريم » .

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا^(٣) . »

ثم الحمد على النعمة العامة :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ^(٤) » :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ، أُولَى أَجْنِحَةٍ ، مَثْنَى ، وَثَلَاثَ ، وَرُبَاعَ ، يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٥) . »

ثم الحمد من أجل النعم الخاصة . والنعم الخاصة كثيرة ، متعددة ،

(١) القصص : ٧٠

(٢) الإسراء : ١١١ .

(٣) الكهف : ١ .

(٤) الأنعام : ١ .

(٥) فاطر : ١ .

« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا (١) » .

وقد أسبغها الله علينا ظاهرة ، وباطنة .

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (٢) » .

وكلها - بدون استثناء - من الله .

« وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ (٣) » .

من أجل ذلك أمر الله سبحانه بالحمد عند كل نعمة :

« فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ، فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤) » .

واستجاب للأمر من استجاب :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالَا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (٥) » .

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٦) » .

« وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ

(١) النحل : ١٨ .

(٢) لقمان : ٢٠ .

(٣) النحل : ٥٣ .

(٤) المؤمنون : ٢٨ .

(٥) النمل : ١٥ .

(٦) إبراهيم : ٣٩ .

مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » (١) .
 « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » .
 « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ
 شَكُورٌ » .

بل هو آخر دعاء أهل الجنة :
 « دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَآخِرُ
 دَعَوَاهُمْ ، أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .
 الحمد لله : إنها تملأ الميزان ، كما ورد في حديث « أئى مالك
 الأشعري » فيما رواه « الإمام مسلم » . قال : رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ
 اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ ، أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .
 وبعد فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيما رواه الشيخان ، -
 قال : « من قال : لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له ، له الملك ،
 وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة ، كانت له
 عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ،
 وكانت له حرزاً من الشيطان ، يومه ذلك ، حتى يمسي ، ولم يأت أحد
 بأفضل مما جاء به ، إلا رجل عمل أكثر منه » .
 وقال : من قال « سبحان الله وبحمده » في يوم مائة مرة ، حطت
 خطاياہ ، وإن كانت مثل زبد البحر » .

وذكر ابن عطية :

روى أنس بن مالك أن النبي عليه السلام قال :

« للحمد لله رب العالمين ، فضل ثلاثين حسنة على سائر الكلام » .

وورد حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من قال : لا إله إلا الله كتب له عشرون حسنة ، ومن قال :

الحمد لله رب العالمين كتب له ثلاثون حسنة » .

وهذا الحديث هو في الذي يقوها من المؤمنين مؤتجراً طالباً ثواباً ،

لأن قوله : الحمد لله رب العالمين في ضمنها : التوحيد الذي هو معنى

لا إله إلا الله ، ففي قوله : توحيد وحمد وفي قول : لا إله إلا الله :

توحيد فقط .

فأما إذا أخذنا بموضعهما من شرع الملة ومحلها من دفع الكفر

والإشراك ، فلا إله إلا الله أفضل ، والحاكم بذلك قول النبي عليه السلام .

« أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله » .

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال : قال رجل عند رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه » ، ورأى أنه

قد هجم من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على شيء يكرهه ، فقال

رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : من هو ؟ فإنه لم يقل إلا صواباً » .

فقال الرجل : أنا قلتها يا رسول الله ، أرجو بها الخير ، فقال :

« والذي نفسي بيده ، لقد رأيت ثلاثة عشر ملكاً يتدرون كلمتك ،

أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى ؟ » .

رواه ابن أبي الدنيا ، والطبراني ، بإسناد حسن ، واللفظ له ، والبيهقي .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول من يدعى إلى الجنة ، الذين يحمدون الله عز وجل في السراء والضراء » رواه ابن أبي الدنيا ، والبزار ، والطبراني .

« الحمد » معناه الثناء الكامل ، والألف واللام فيه لاستغراق الجنس من المحامد ، وهو أعم من الشكر ، لأن الشكر إنما يكون على فعل جميل يسدى إلى الشاكر وشكره حمد ما ، والحمد المجرد هو ثناء بصفات المحمود من غير أن يسدى شيئاً ، فالحامد من الناس قسمان : الشاكر ، والمثنى بالصفات .

وأخيراً . . فإنه ينبغي - متابعة للنسق القرآنى - أن يفتح المسلم كل عمل من أعماله الخيرة بقوله : « الحمد لله » .

وأنا أبدأ في هذا الكتاب « الحمد لله » وأسير فيه مردداً : « الحمد لله » وحينما أنتهى منه فإنى أتابع أهل الجنة : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ : أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

الفصل الثاني

البيئة والنشأة



حياتي

كلما تذكرت حياتي . . ماضيها البعيد كما وعيته ، وسيرها المتتابع
كما واجهته، وحاضرها الراهن كما أعيشه ، قلت : الحمد لله .
وما من شك ، في أنه مرت بي ظروف ، اعتقدتها - في أثناء -
حدوثها مريرة ، ولكنها كانت في حقيقتها حلوة .
(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) .
ومرت بي ظروف تأملت لها . . . ولكن : من الذي سارت به الحياة
دائماً - رخاء ؟

وإذا خُيرَ الآن - وقد تخطيت الخامسة والستين - في الحياة
التي أتمناها ، لم أختَر سوى حياتي ، التي عشتها ، لم أختَر سواها في جملتها^(١)
لقد ولدت في صحة لا بأس بها ؛ أما من الناحية الجسمية فإن
الله سبحانه وتعالى قد عافاني من التشويه في الجسم جملة ، وفي الجوارح
كذلك : العينان سليمتان وسمع الأذنين عادي .

(١) لقد سبق أن كتبت ما يلي : [لو استقلت من حياتي ما استدرت لما احترت حياة
أخرى]

ولقد وقفت في فترات كثيرة على مفترق طرق ، وكان بعضها براقاً وكان الله سبحانه وتعالى
يختار لي : فالحمد لله :

وهكذا لا شذوذ - إفراطاً ولا تفريطاً - وعافاني - وله الحمد -
 من السُّمَّة ، ومن النحافة ، وجعلني وسطاً بينهما - وله الحمد -
 وعافاني من الطول والقصر ، وجعلني وسطاً - وله الحمد - وعافاني
 من البياض الأشقر ، ومن السمرة الداكنة - وله الحمد - ولم أُصِبْ
 في هذه السنوات الطويلة ، التي مرت بي ، بمرض خطير ، ولله الحمد
 والمنة والفضل .

وإذا جئت - الآن - إلى الذكاء ، والعقل ، والاتزان ، فإنني
 أحسب أنني - في كل ذلك - وسط .
 وأشهد أنني لست حاد الذكاء ؛ فكم رأيت من هم أذكى مني ،
 وعدم الحدة في الذكاء ، كان له نتيجتان :

النتيجة الأولى :

أنني كنت في عجز يكاد يكون تاماً عن الفهم - في الوقت المناسب -
 لما كان يدبر لي ، من مكر ، ومن مكائد ، ولما كان يحيط بي أحياناً ،
 من جو مشحون بالخبث والدهاء .
 إن بعض الناس يسعده أن يسيء إلى الآخرين ، وأسباب ذلك
 تتعدد وتختلف : منها الحسد ، ومنها ضعة النفس .
 إنه لضعة نفسه يحب أن ينزل بالآخرين - أخلاقياً - حتى يكونوا
 في مستواه من الضعة ، أو أن ينزل بهم - لرفعتهم في المجتمع -
 حتى يرتفع هو إلى مكائهم أو يرتفع - في زعمه - فوق رفعتهم ، أو ينزل
 بهم إلى مستوى أقل ، . . . إلى مستواه هو .

ويأخذ - بذكاء إبليس - يدبر المؤامرات والمكائد ، ويشيع ما ليس صحيحاً ، ويلفق ، ويعيش في جوم من الباطل طيلة حياته .
هل تدبرت قصة إبليس وإغوائه لآدم ؟ لِمَ أغواه ؟ ولكن يحسن أن نتحدث في شيء من السعة عن القصة ؛ ففيها عظة ، وفيها عبرة .

إبليس والإفساد

عصى إبليس ربه تعالى ، وكان من الممكن أن يتجه إلى الله سبحانه بالتوبة الصادقة ، فينال العفو والمغفرة ، ولكنه عاند ، ولجّ في عناده ، وطلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم يبعثون ، ليغوى بني آدم . . .
وكانت معصيته :

١ - حسداً .

٢ - وكبرياء .

٣ - وضعة .

وهذا يشعر بأن عبادته التي كان يستغرق فيها مع الملائكة ، كانت زهواً ، وخيلاء ، ولم تكن خالصة لوجه الله تعالى :
وظهر إبليس - بالمعصية - على حقيقته : حقوداً ، حسوداً ، متكبراً ، وضيعاً .

فطرده الله من رحمته . .

وبدأ إبليس الإفساد . .

وذهب إلى آدم وحواء عليهما السلام ، وأخذ يوسوس لهما بالأكل

من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها . . .
 لقد كان آدم عليه السلام طاهراً نقيّاً ، صافياً زكياً ، وكان في
 هذا الطهر ، وهذا النقاء ، يعتقد أن الكائنات هكذا خلقوا .. طاهرين
 أصفياء .. فلما وسوس إليهما إبليس ، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ..
 وأتاهما من موطن الضعف في الإنسان ، قائلاً :
 « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة ، إلا أن تكونا ملكين ،
 أو تكونا من الخالدين » . . .

صدّقه ، وأكلا من الشجرة ، ودخلا في جو الإثم بذلك والمعصية . .
 وما أراد إبليس بذلك ، إلا أن ينزل بالطهر والنقاء ، إلى جو
 الفساد والإثم ، وما كان له من هدف إلا أن ينزل بالشرفاء الأصفياء
 إلى مستواه هو
 ولكن الله تعالى أخلف ظنه ..

فقد اتجه آدم وحواء إلى الله بالتضرع ، والتوبة ، وقالوا :
 « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .
 وكانت النتيجة :

« ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » .
 ورد الله كيد الشيطان إلى نحره ، وجعل كيده ينقلب حسرة منه
 على ما فاته من إغواء آدم إغواءً أبدياً . ولا ريب أن كل من فوض أمره
 إلى الله فإن الله تعالى يرد كيد الماكرين به إلى نحورهم ، ولقد عصمني
 الله تعالى - وله الحمد - من أن أنزلق إلى مستوى الماكرين ؛ فقد كان
 سبحانه وتعالى رءوفاً بي في كل الظروف ، ولقد اتخذت التفويض شعاراً

لى ، فكنت أكرر :

« وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ؛ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

يقول الإمام « جعفر الصادق » ، رضى الله عنه :

« عَجِبْتُ لِمَنْ ابْتُلِيَ بِالْمَكْرِ ، كَيْفَ يَغْفُلُ عَنْ :

« وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

والله سبحانه يقول :

« فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَّرُوا » .

وكان الله تعالى يقينى سيئات ما مكروا ، ويرد كيد الكائدين إلى

نحورهم ، وله الحمد .

أما النتيجة الثانية :

وهى نتيجة أوحى بها آثار النتيجة الأولى ؛ فهى أنى - وقد اشأزت

نفسى من الذين أقاموا حياتهم على المؤامرات والمكر ، لم ألجأ إليها ،

ولم أحاول أن أقرب منها : إبنى أعترف - صادقاً - أنى لم أدبر تدبير

مكر فى حياتى ، ولم أدبر تدبيراً سرياً ضد أى كائن .

ولقد كنت واضحاً دائماً ، وإذا أردت أمراً فعلته مكشوفاً لا أسرف فيه .

السرية المعلنة

ومسألة « السرية المعلنة » - إذا صح هذا التعبير - في حياتي ، لا ترضى بعض الذين يحيطون بي .

في يوم من الأيام - وقد كنت - إذ ذاك أميناً عاماً لمجمع البحوث الإسلامية - أخذ المحيطون بي يتحدثون عن السرية ، وينصحون أن أستخدم الأغلاق والمفاتيح (لأدراج) المكتب ، على هيئة معينة ، مخصصة ، وألحوا ، واستجبت .

ورتبت الأمور ، في (الأدراج) على ما أرادوا ، وثبتت من المفاتيح ، ومن أن (الأدراج) قد أغلقت ، وسارت الأمور على ما يشتهون .

وانتهى العمل ، وخرجت ، وعندما وصلت إلى البيت ، تذكرت أنني تركت المفاتيح في (الأدراج)

وعندئذ عدت إلى طبيعتي : لا سرية في حياتي .

أتعرف العالم الكبير « النظام » إمام المعتزلة في عصره ؟ يروون عنه . . أنه كان أضيق الناس صدرأ بسر ، وأن صدره كان يضيق أكثر ، كلما كان التأكيد عليه بالسرية أكثر .

ولما كان يقال له عن ذلك ، كان يجيب :

إنني لست حريصاً على كتمان هذا السر ، بمقدار حرص صاحبه عليه ، وإذا كان صاحبه قد أفشاه لى فليس على من خرج ، في أن أقتدى به في الإفشاء .

كان « النظام » يذيع أسرارهِ فيما يتعلق بنفسه ، أو بتعبير آخر ، لم يكن له سر ، وهكذا كان بالنسبة لكل سر .

ولكننى لا أقتدى « بالنظام » فى إفشاء أسرار الآخرين ، فليس « النظام » - فى إفشاء الأسرار - قدوة ، لا ولا قلامة ظفر . وإذا كنت قد ضربته مثلاً للرجل الواضح ؛ فإنه لا يقتدى به فيما يخالف الجوى الإسلامى ، والجوى الإسلامى يحرم إفشاء الأسرار ، إنها أمانة ، والأمانات لا تعطى للغير وإفشاؤها خيانة .

والإسلام يعلن أن من صفات المنافق .. أنه إذا أؤتمن خان ، وبالتالي ؛ فإن المؤمن ، إذا أؤتمن وفى .
وأعود إلى حياتى من جديد ..

إننى وإن كنت غير حاد الذكاء ؛ فإنى أيضاً لست قوى الذاكرة ، ولكننى أقول - فى غير فخر - إنى لست بليداً ، ولقد كان ترتيبى دائماً فى الدراسة فى أوائل المتوسطين ، وهو ترتيب أحمد الله تعالى عليه وفيما يتعلق باللاتزان ، فيكفينى أن أقول ! إننى لست « متمتماً » ، وليس بى جمود وإذا نظرت إذن إلى الناحية الجسمانية ، والعقلية ، فلا يسعنى إلا أن أقول « الحمد لله » .

النشأة

ونشأت - والحمد لله - في أسرة ميسورة ، إنها من هذه الأسر التي يقال عنها « أعيان الريف » .

لم تكن أسرة واسعة الثراء ، ولم تكن فقيرة ، وإنما كانت ميسورة . وكان نجم الأسرة اللامع هو والدي . كان رجلاً مكتمل الرجولة . كان مكتمل الرجولة في أخلاقه ، إذا عاهد وفى ، وإذا قال صدق ، يكرم الضيف ، وكان مشهوراً بالكرم ، ويعطف على الفقراء ، ويتصدق عليهم ، وكان جاره يأمن بوائقه . يساعد في الملمات ، بماله ، وبرأيه . وكان ذا رأى سديد ، يلجأ إليه الناس يستشيرونه في أمورهم ، ويحكمونه في قضاياهم .

وكان صاحب دين يحرص على عدم الإخلال به ، ويحرص على أن تلتزمه الأسرة : لقد كان على خلق كريم ولا تُستغرب هذه الصفات من رجل من النسل الشريف الطاهر : إنه حسنى ، يمتاز بما يمتاز به آل البيت ، من خلق الشهامة والمروءة والكرم والتزام الحق . . . درس في الأزهر فترة طويلة من الزمن ، حضر فيها على كبار الأساتذة ، من بينهم « الشيخ محمد عبده » وقد . . . رأيت له بعض الملخصات من دروس التفسير للشيخ « محمد عبده » وقد قارنتها بموضوعاتها في تفسير المنار ، فوجدت توافقاً في المعنى ، ولم يمنعني من نشرها ، إلا أنها كانت متناثرة ، ولما طال بها الزمن ، وتقلبت بها الأحوال زادت تغيراً .

وإنه ليكفينا في هذا المجال ما حَبَّره قلم المرحوم « الشيخ رشيد رضا » .
 وكان يتحدث عن بعض أساتذته بصورة جميلة ، تحبب الإنسان
 في الأزهر ، وجوه ، وعلمائه .

ويتحدث عن زملائه ، في صورة من المودة ، والحب ، تجعل
 الإنسان يحبهم .

ولو خيرت ما اخترت به بديلاً .

ولو خيرت كذلك بالنسبة لوالدتي ما اخترت بها بديلاً : إنها شريفة
 هي الأخرى ، حسينية كذلك .

وقد وهبت حياتها - في سماحة - لوالدي ، ولأبنائها ، ولم تأل
 جهداً في توفير الراحة لهم ، وكانت كريمة بالنسبة للفقراء ، والمساكين ،
 تعطف عليهم ، وتبرهم ، وترسل إليهم من الطعام ، والكسوة ، ومما تثمر
 الأرض من خضراوات ، وبقول ، وفواكه .

رحم الله والدي ، ورحم الله والدتي ، وجزاها خير ما يجزي
 العاملين المخلصين .

« رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا » .

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ،
 وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ،
 وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

وإذا نظرت إلى والدي فأني أقول : الحمد لله . وإذا نظرت إلى
 والدتي فأني أقول : الحمد لله .

تحديد النسل فكرة منكرة

وكان والدى ووالدتي كلاهما يحبان الإنجاب ، ويحبان - على الخصوص - كثرة الذرية من الذكور .

إنهما لم يكونا من أنصار تحديد النسل ، ولم تظهر هذه الفكرة المنكرة إلا في العصور الحديثة ، وأراد أنصارها تبريرها ؛ فلجأوا إلى الحديث عن موضوع « العزل » ، وليس لموضوع « العزل » بها من صلة .
إن موضوع « العزل » ، مثله كمثل الامتناع عن النسل ، بالنسبة للأم المريضة ، التي يضرها الحمل .. أتري أن الامتناع عن الحمل بالنسبة للأم المريضة يأتي برهاناً في باب إباحة « تحديد النسل » هناك المرض الجسماني .. إنه لا يتخذ حجة لإباحة تحديد النسل ، وهناك الإرادة الحكيمة عند كثير من الناس ، في الحرص على شرف الأنساب ، أو بتعبير مناسب ، في الحرص على صحة الأنساب ، أى على ألا تكون الأنساب مريضة .

والغالبية العظمى ، من الجوارى لا يعرف لمن أنساب ، فأبيح « العزل » بالنسبة للجوارى ، حرصاً على النطفة من أن تصل إلى خضراء الدمن ، سواء كانت خضراء الدمن من الأحرار ، أو من الجوارى .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إياكم وخضراء الدمن قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء) .
وكانوا يعزلون مخيراً لنطفهم .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) .

إن في بنى البشر أناساً يتطهرون ، ومن تطهرهم أن يحرصوا على
الفضيلة في أنفسهم ، ويحرصوا على أن يهيشوا جو الفضيلة لأبنائهم ،
قبل أن يولدوا ، وبعد أن يولدوا ، ومن هنا كان حرصهم على أن يظفروا
بذات الدين ، فإذا لم يتبها لهم ذلك فإنهم لا يجدون بأساً في الامتناع
عن الإنجاب ، حتى يهيئ لهم الله الجو المناسب للإنجاب ، فإذا ما تهيأ
الجو المناسب للإنجاب - وهذا ما نرجو أن يتنبه إليه المؤيدون لتحديد
النسل - فإنهم ينجبون بدون حساب - شاكرين الله على نعمته ، لا يحددون
نسلاً ، ولا ينظمون نسلاً ، لا صلة إذن للعزل بموضوع تحديد النسل .
وكان الصحابة رضوان الله عليهم ، حين يطمثون إلى شرف الجوارى
لا يعزلون ، كما حدث ذلك بالنسبة لبنات كسرى ، وقد أنجبن الشرفاء ،
والنجباء .

هل سمعت عن أحد من الصحابة حدد النسل لضيق ذات اليد ؟

أين إذن قول الله تعالى :

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » . . ؟

وأين إذن :

« وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » . . ؟

ثم القسم الإلهي على ذلك .

« قَوْلَ رَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ » .

ويلجأ أنصار تحديد النسل دائماً ، إلى رقعة الأرض المصرية

المزروعة ، ويحددونها (بالمتر) (والسنتيمتر) ويحددون ما تكفيه هذه الرقعة من أفواه ، ويحسبون ذلك بالعقل « الألكترونى » .
وإنهم لمخطئون .

أولاً : لأن الصحراء يمكن أن تُقهر ، وأن تُذلل ، وأن تصبح ثروة ضخمة ، لو وجدت الإخلاص لله ، وللوطن ، لو وجدت رجالاً أذكاء ، قد تخلوا عن الخمول ، لو وجدت رجالاً ينظرون إلى مصر ، محبين لها ، عاملين من أجلها . .

وخذ أمثلة من كل قارة في العالم فستجد من زرعوا الصحراء بزراعات مناسبة ، وتغلبوا عليها ، إن أشجار الزيتون مثلاً تصبر على الماء ثلاث سنوات ، هل فكرنا في زراعة الزيتون ؟ وليس في أراضينا أرض لا يتزل فيها المطر ، لا صيفاً ، ولا شتاء . ثلاث سنوات متوالية ، إلا النادر المحدود ؛ إن أقاليم « بتونس » لا تتزل فيها الأمطار إلا نادراً : لقد زرعتها « تونس » زيتوناً ، وأصبح الزيتون في تونس من المصادر الرئيسية للثروة ، ويستطيع خبراء الزراعة أن يحدثوك عن إمكانات لا حد لها ، فيما يتعلق باستثمار الصحراء .

هل قرأت كتاب « الصحراء ثروة وثورة » ؟
إن مؤلفه يؤكد أنه من الممكن زراعة سبعين مليوناً من الأفدنة في مصر .

لابد من أن ينتفض رجال مصر انتفاضة مؤمنة بمصر ، وبمستقبل مصر ، فيفكروا في جد ، وفي إخلاص ، في تذليل الصحراء وقهرها ، وفي الاستفادة بكل قطرة من مياه النيل ، وفي طرق الري الحديثة ،

وفي وسائل الإخصاب الزراعي الكثيرة .

وفي عصر مزدهر لمصر الزراعية .

ومع كل ذلك فإننا نقول مع القائلين المخلصين الصادقين . .
إن الاتجاه في مصر إلى الزراعة وحدها ، قصور في التفكير ،
بل هو قصور فرضه المستعمر ، ولم تتخلص منه للآن .
إن المستعمر أراد لمصر أن تقبع بين حدود معينة من الأرض الزراعية ،
لا تنطلق منها إلى بقية البقعة الأرضية الصحراوية ، لتظل محدودة
الدخل ، محدودة الإمكانيات ، محدودة التأثير في العالم ، لا دور لها
بين الأمم .

واستجاب عملاء الاستعمار فوجّهوا الأنظار دائماً إلى خمسة
ملايين من الأفدنة هي الأرض الزراعية في مصر ، وأعلنوا ألا مجال
في غيرها ، وتركوا النيل يصب في البحر ، ووجه المستعمر إلى الزراعة
فقط .

إن مصر - فيما رأى المستعمر - بلد زراعي ، لا شأن له بالصناعة ،
وليست مصر بجو صالح للصناعة .

إن الصناعة تحتاج إلى مواد خام ، وليس بمصر من هذه المواد
الخام ما يفي بمتطلبات الصناعة .

واستجاب عملاء الاستعمار إلى هذا التوجيه ، وأعلنوا - كما
أعلن المستعمر - أن مصر بلد لا تصلح فيه الصناعة . وردّد عملاء
الاستعمار هذا الإعلان ، بحجة المستعمر . (ليس في مصر مواد
خام) . .

وكل مصري يعلم أن هذا كله باطل ، وأن المواد الخام أو معظمها ، موجودة بمصر ، وأن مصر بلد صناعى ، بمقدار ما هو زراعى ، ومع كل ذلك فقد بدأ « البترول » يسيل شيئاً فشيئاً ، وبدأت الآمال عريضة فى تيسير الله تعالى لتدفقه .

تحديد النسل ! ! إنها فكرة منكرة ! !
وهى إذا اتخذت الأساس ، ضيق ذات اليد ، فإنها فكرة تخالف الدين ، يحرمها الدين .
وأقولها بالصوت الجهير ، وأكتبها بالخط العريض : إنها فكرة ليست فى مصلحة مصر .
ويمكن أن نقول مع « الدكتور على عبد الواحد » عميد علم الاجتماع فى مصر : إن مشكلة مصر قلة النسل .
وعلى ذلك ؛ فإن ما ينفق على مراكز تنظيم النسل ، يجب أن ينفق على شيء نافع ، ويجب أن تغلق هذه المراكز .
« اللهم إني قد بلغت ، اللهم فاشهد » .
وأعود إلى ما انقطع .

عزبة « أبو أحمد »

ولدت فى « عزبة » أبى أحمد .
« وأبو أحمد » هو جدّ والدى .
وقد بنى جدى هذه « العزبة » بيتاً ، بيتاً ، وكانت مسكناً للأسرة ،

وأصلح جدى أرضها ، فداناً ، فداناً ، وتسمى الآن « قرية السلام »
تبع « مركز » بلبيس ، وتبعد عن بلبيس بمقدار أربعة كيلومترات
وتبعد عن القاهرة بمقدار خمسة وأربعين كيلومتراً تقريباً .

يحدها شرقاً الصحراء الشرقية . ويحدها غرباً التربة الإسماعيلية .
وبين الصحراء والتربة الإسماعيلية ، خضرة ساحرة ، هي الأرض
المزروعة الخصبة ، والعزبة على حافة التربة الإسماعيلية .

موقع جميل ، موفق « الحمد لله » .
وأمام بيتنا حديقة صغيرة ، من أشجار الليمون والمانجو ، تحفها
أشجار النخيل ، يفصلها عن البيت جدول من المياه يسمى في الريف
عادة « الخليج » .

لقد قضيت أياماً من أجمل أيام حياتي في هذه الحديقة ، تحت
شجرة ضخمة من أشجار الليمون . كانت كأنها خيمة ، تظللنا في فراغها
المتوسط ، وتحنو علينا بأفرعها وغصونها التي لا تصل إلى الأرض ،
ولا ترتفع رأسياً . وكان للحديقة عير منعش ، وكان فيها جمال وهدوء .
وكنت أقضي الصيف بأكمله تحت هذه الشجرة ، كنت دائماً

في شبه خلوة ، ومع ذلك فإنني كنت في « العزبة » .
كنت أحمل الكتب في أوائل الصيف ، وأحمل « الفرش » المناسب ،
وأترك الكتب والفرش في المساء ، لأعود إليها في الصباح ، أقضي
الساعات في قراءة متنوعة . تشرق على الشمس وأنا في الحديقة ،
وتغرب الشمس وأنا في الحديقة ، ولم يفصلني عن هذه العادة في الصيف
إلا سفرى إلى « فرنسا » وإذا نظرت إلى المكان وما اكتمل فيه من حسن

وبهاء . فإني أقول : « الحمد لله » .

على أن هذه « العزبة » بجمالها ورونقها ، تقع في البقعة الأم . .
« محافظة الشرقية » وإني لفخور « بمحافظة الشرقية » : هذه المحافظة
التي تتسم بطيبة القلب ، وصفاء النفس ، والكرم ، ولو خيرت ما اخترت
سواها ، « والحمد لله » .

جئت إلى الحياة على لطفة - من أسرتي - إلى الولد « الذكر »
فقد سبقني أختان ، وأخ ، استأثر الله به ، في طفولته المبكرة !
وكان الجو كله - كما أخبروني - مشبعاً بالأمل والرجاء في ولد
ذكر وجئت ! .

جئت في جو من الترحيب - كما علمت فيما بعد - وترعرعت في
جو من الرعاية والعناية الفائقة .

في الكتاب

ولست أتذكر من طفولتي الأولى إلا أياماً قضيتها مع أطفال
القرية ، ذكوراً ، وإناثاً ، في « الكتاب » .
مازلت أتذكر هذا الجو من الاحترام ، الذي كان يحيط بالقرآن
الكريم ، وبسيدنا ، وبالكتاب .

كان أطفال القرية جميعاً في هذه السن المبكرة - التي تروح
بين الرابعة ، والخامسة ، والسادسة - يذهبون إلى الكتاب ، ذكوراً ، وإناثاً ؛
ثم تتفرق بهم مسالك الحياة ، بعد ذلك ، فيما بين الثامنة والتاسعة غالباً .

أما بعضهم - القليل منهم - فإنه يواصل تعليمه . وأما الأكثرون فإنهم يذهبون إلى الحقل ، بعد أن يكونوا قد أخذوا بحظ - لا بأس به - من حفظ القرآن الكريم . .

وانتهت مرحلة الكتاب - بالنسبة لى - بحفظ القرآن الكريم -
ولله الحمد .

وكان يوماً مشهوداً : ذلك اليوم الذى ختمت فيه القرآن الكريم .
لقد كان والدى فى فرح غامر ، وكان البيت كله فى بهجة وسرور شاملين . وكانت حفلة حافلة ، بأطيب اللحم والثريد ، ختمت بالذكر ،
شكراً لله تعالى .

أما سيدنا ، فإنه قد ظفر بما لم يكن له فى حسابان مكافأة له وتقديراً
والحمد لله .

كانت سنى صغيرة على الالتحاق بالأزهر ، وكان والدى يفكر
فى أن يرسلنى إلى مكان ناء - نسيئاً - لأتعلم فيه أحكام التجويد ،
ولكن حنان الأم ، وحرص الأب على أن أكون تحت رعايته ،
حالا بينى وبين تحقيق ذلك .

ويا ليتنى تعلمت أحكام التجويد صغيراً ! يا ليتنى ! ! .

القرآن مصدر الهداية

ولا بد هنا من كلمة إلى كل مسئول في الدولة :

إن القرآن الكريم هو مصدر هدايتنا ، وأساس نجاتنا ، دنيا وأخرى ،
ومهما اختلفنا في أمر من الأمور ، فإننا لا نختلف في النتيجة السعيدة ،
التي تثمرها العناية بالقرآن الكريم ، للفرد ، وللأسرة ، وللمجتمع .

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » .

التي هي أقوم في العقيدة .

والتي هي أقوم في الأخلاق .

والتي هي أقوم في التشريع .

والتي هي أقوم في نظام المجتمع .

وإن من مفهوم الإيمان عند كل مؤمن ، اليقين بذلك ، ولا يختلف
المؤمنون في شيء من هذا أبداً .

وتعاليم القرآن - في كل زاوية من زوايا الحياة - هي الصراط المستقيم :

خذ مثلاً العلم والحث عليه : العلم بالله ، وبالكون ، بالأرض والسماء ،
وبما بين الأرض والسماء ، فستجد أروع ما قيل في الحث على طلب العلم .

خذ مثلاً الأمانة : تجد القرآن يُدخلها - كجزء لا يتجزأ - في
مفهوم الإيمان . يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةٌ لَهُ » .

خذ الشورى . خذ الجهاد . وخذ الإعداد للجهاد مادياً ، ومعنوياً .

خذ العمل ، والضرب في الأرض ، والسعى في مناكبها ، وخذ أروع الأخلاق الإنسانية العالمية من :

الرحمة ، « وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .
العدل ، والإحسان . « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » .

ومفهوم الإيمان الصادق . ما هو ؟

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ، وَأَنْفُسِهِمْ ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .
فاذا أردت بياناً لهذه الآية الكريمة - في شيء من التفصيل فستجد : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ .
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ؛ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

وستجد : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » .

وستجد : « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ؛ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ

بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا . وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وَالَّذِينَ إِذْ ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَدُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

ستجد الخلق أسمى ما يكون الخلق ، وستجد التشريع المعصوم - الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - وستجد العقيدة أصدق ما تكون العقيدة .

إن الله سبحانه وتعالى يقول : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا » . لقد تمت صدقاً فى العقيدة والأخلاق ، وتمت عدلاً فى التشريع ونظام المجتمع ؛ إنها تمت صدقاً فى جميع أجواء الصدق ، وتمت عدلاً فى جميع أجواء العدل .

وهى - فى صدقها وفى عدلها - خالدة أبدية . وكلها متضمنة فى القرآن الكريم ، وفيما بينه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيرته .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما بال قومنا ، اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ؟ ! .

إن الكثيرين - من كبار المسئولين - لا يؤدون للقرآن ما ينبغي له ، وإن الكثيرين - من كبار الأثرياء - لا يؤدون للقرآن ما ينبغي له ، وإن الكثيرين - من كبار المثقفين - لا يؤدون للقرآن ما ينبغي له .

وستنتهى حياة كل هؤلاء فى يوم من الأيام ، ولن ينفعهم جاههم ، ولا ثراؤهم ، ولا ثقاتهم . وإلى هؤلاء - جميعاً - نقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ؛ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . » ولا تكونوا كالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ . لو أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا ، مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ، الْقُدُّوسُ ، السَّلَامُ ، الْمُؤْمِنُ ، الْمُهِيمُ ، الْعَزِيزُ ، الْجَبَّارُ ، الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ ، الْبَارِئُ ، الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . »

وما من شك فى أن هناك صفوة من المتقين لهم عناية بالقرآن ؛ ولكن الجمعيات - التى تعنى بالقرآن - تعانى من بُخل الأثرياء ، ومن تعويق المسئولين ما تعانى ! .

وهناك مجموعة - قليلة - من « المحافظين » تتجه - مشكورة - إلى العناية بالقرآن ، ولكنها تخطو فى خطوات بطيئة ، أما وزارة التربية فإنها - فى حقيقة الأمر - المجال الخصب ، والحقل المثمر لو اتجهت نحو

القرآن الكريم ، بعزيمة صادقة .

وإن كل من يتجه إلى العناية بالقرآن الكريم ، في وزارة التربية ، فإن الله سبحانه وتعالى سيجزيه خير الجزاء ، في نفسه ، وفي أسرته .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » .

وسوف لا ينفع الأثرياء الشحُّ بمالهم ، في هذه الحياة ، ولا في الحياة الآخرة . ولقد شحَّ الأثرياء بأموالهم - عن إنفاقها في سبيل الله ، والعناية بالقرآن ، وتقوية الشعور الديني : شعور الاستمسك بالكتاب والسنة - فدارت عليهم الدائرة : مصادرة للأموال ، والحريات ، وتعذيباً ، وتنكيلاً ، وخسفاً ، وقمعاً وباءوا بالخسران والحسرة .

لقد التقى أحد كبار الأثرياء يوماً بشيخ من شيوخنا الصالحين ، فنصحه هذا الشيخ : بأن يقدم لله ، ولآخرفته بناء معهد ديني للقرآن الكريم ، وللعلم الشريف ، فأبى الثرى - صاحب الضياع الواسعة ، والآلاف من الأفدنة . ثم . . . ثم كان ما يعلمه كل ثرى ، شحَّ بماله في سبيل الله .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ . . . »

ولعلك تتساءل :

« ما بال الأزهر لا يرمى هذا الجانب ؟ »

والواقع أن الأزهر يعنيه - في الدرجة الأولى - إنشاء معاهد تخرج العلماء ، الذين يقفون سداً منيعاً ، يصدُّ كل تيار منحرف ؛ إن الأزهر ، يجب أن يكون له في كل قرية معهد ابتدائي ، وآخر إعدادي ،

ويكون له في كل بلدة معهد ابتدائي ، وآخر إعدادي وثالث ثانوي .
 أما المدن وعواصم المحافظات ؛ فإن الأزهر يجب أن يكون له في كل
 حي معاهد من كل نوع مما تقدم ولكن يحول دون ذلك قصور ميزانيته .
 إن من أنفس أعمال الخير - التي يباركها الله سبحانه وتعالى
 ورسوله - إنشاء هذه المعاهد ، لما يرجى منها في نشر الوعي الديني
 وإحياء التراث الروحي . حقاً ؛ إن كثيرين من أفراد الأمة المصرية -
 جزاهم الله خيراً - قد اتجهوا إلى بناء المساجد ، وهو عمل يشكرون
 عليه . وإن من الأعمال العريقة في الخير إنشاء المعاهد لتحفيظ
 القرآن ، وتعليم العلم ؛ فإذا اتجه الخيرون إلى إنشاء هذه المعاهد ؛
 فإن ذلك يكون دليلاً على الأخذ بأسباب الإصلاح المثمرة .
 وأحب أن أقول للعاملين على الإصلاح : إن من وسائل الإصلاح
 الأخلاقي الحاسمة ، أن ينشر الوعي الديني في استفاضة ، ولن
 يتأتى ذلك إلا إذا أكثرنا من المعاهد الدينية الأزهرية . . . ونضرع
 إلى الله تعالى مخلصين أن يوجه الخيرين إلى ذلك .

في المدرسة الأولية

. . . ثم ذهبت إلى المدرسة الأولية - بعد أن أدى الكتاب
 رسالته ، وأتممت فيه حفظ القرآن ، ولما أصبحت في سن مناسبة
 للالتحاق بالأزهر ، رافقني أبي إلى القاهرة ، وهناك ألحقت به ،
 بدأنا الدراسة في المسجد . « مسجد إبراهيم أغا » .

وأعود إلى حياتي من جديد لأحمد الله سبحانه ، لا أحصى ثناء عليه ، هو تعالى كما أثنى على نفسه ، إنه الكمال المطلق ، والرحمة الكاملة ، وأرحم الراحمين ، ورحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ورحمته بي أعم وأعظم من أن أفي بحمدها ، وأعظمها : أعظمها على الإطلاق أنى نشأت « مسلما » ولا يتأتى أن أصل إلى التعبير الذى يصور ، أو يقارب ، شكرى لله تعالى على ما من الله تعالى به على من هذه النعمة التى أتمها الله تعالى ، وهذا الدين الذى أكمله الله ، وهذا الإسلام الذى رضىه . وأن يكون إمامى وقودى وأسوتى هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى لا يقال فيه إلا ما قال البوصيرى :
ومنتهى القول فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

الإسلام لكل زمان ومكان

أما عن الإسلام الذى لا دين غيره فلا مناص من أن نعطى القارئ لمحة عنه إلى أن ييسر الله تعالى الاستفاضة عنه .
الإسلام على الحقيقة ، كما يقول الإمام البخارى هو الذى يؤخذ من قوله تعالى :

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » (١) .

(١) وقريب من هذا الذى ذكره الإمام البخارى ما ذكره الراغب الأصفهاني في المفردات =

أما إذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره :
« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » .

وعلى قوله سبحانه :

« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » .

الإسلام - الدين الخالص - يقول عنه « الراغب الأصفهاني »
إنه « فوق الإيمان » : وهو أن يكون - مع الاعتراف - اعتقاد
بالقلب ، ووفاء بالفعل ، واستسلام لله ، في جميع ما قضى ، وقدر ،
كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله :
« إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ »
« قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »

وقوله تعالى :

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » .

وقوله :

« اتَّقِنِي مُسْلِمًا »

أى اجعلنى ممن استسلم لرضاك ، ويجوز أن يكون معناه :
اجعلنى سالماً عن أسر الشيطان ، حيث قال :
« لَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » .

= من أن الإسلام في الشرع على ضربين :

أحدهما : وهذا الذى تذكره الآية الشريفة دون الإيمان . وهو الاعتراف باللسان ، وبه
يحقن الدم ، حصل به الاعتقاد ، أو لم يحصل ، وإياه قصد بقوله تعالى « قالت الأعراب
آمنّا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا » . ١٨٠ .
أما الضرب الثانى فهو الذى ذكرناه بعد رأى الإمام البخارى .

وقوله :

« إِن تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » .

أى منقادون للحق ، مدعون له .

« يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا » .

أى المدين انقادوا من الأنبياء - الذين ليسوا من أولى العزم -

لأولى العزم (من الرسل) الذين يهتدون بأمر الله ، ويأتون بالشرائع (١) .

وهذا المعنى الذى ذكره صاحب المفردات ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً

بالمعنى اللغوى لكلمة « إسلام » .

يقول « ابن الأنبارى » المتوفى سنة ثلثمائة وثمان وعشرين من الهجرة ،

فى المعنى اللغوى للكلمة .

« المسلم : معناه المخلص لله فى عبادته ، من قولهم سلم الشيء لفلان :

خلص له . فالإسلام : معناه ، إخلاص الدين ، والعقيدة لله تعالى (٢) .

وسواء نظر الإنسان إلى المعنى الشرعى للكلمة ، أو إلى المعنى اللغوى ،

فإنه يجد أن هذا اللفظ لا يشير :

١ - إلى شخص معين ، كما تشير « البوذية » مثلاً إلى « بوذا » ،

و « الزرادشتية » إلى « زرادشت » .

٢ - ولا إلى شعب معين ، كما تشير « اليهودية » إلى شعب بذاته .

٣ - ولا إلى « إقليم » أو بلد معين ، كما تشير « النصرانية » .

والدين الذى يدل ، أو ينتسب ، أو يشير إلى شخص معين ،

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني .

(٢) تفسير الفخر الرازى الجزء الثانى ص ٣٢٨ المطبعة الخيرية سنة ١٣١٨ هـ .

أو إلى شعب معين ، أو إلى إقليم معين ، يتحدد زمنه - ضرورة -
بابتداء الشخص ، أو الشعب ، ويتحدد بالمكان ، ولكن كلمة « الإسلام »
لا تدل على زمان ، ولا مكان ، فهي :

٤ - لا تشير إلى زمن يحددها .

ولا إلى مكان تتقيد به .

وتضعنا هذه الكلمة - مباشرة - في جو عالمي ، مطلق ، بل في
جو عالمي ، يتخطى حدود هذا العالم الأرضي - إذا أمكن ذلك -
فلا يتقيد به ، ولا يتحدد بحدوده .

إنها لا تحد بالبعثة المحمدية : فسيدنا نوح عليه السلام يقول لقومه :
« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ^(١) » . وسيدنا إبراهيم ، يقول عنه القرآن الكريم .
« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا ، وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا .
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(٢) » .

وحينما كان سيدنا إبراهيم يرفع القواعد من البيت ، هو وسيدنا
إسماعيل أخذوا يدعوان الله سبحانه قائلين :
« رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَارِنَا مَنَاسِكَنَا ، وَتُبْ عَلَيْنَا ،
إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ^(٣) » .

(١) يونس : ٧٢ .

(٢) آل عمران : ٦٧ .

(٣) البقرة : ١٢٧ ، ١٢٨ .

ولم ينس سيدنا إبراهيم ، وسيدنا يعقوب أن يوصيا بنيهما بالإسلام .
يقول تعالى :

« وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ، وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » .

وحينما حضر سيدنا يعقوب الموت ، قال لبنيه مستفسراً ، ليذهب
إلى ربه مطمئناً :

« مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ؟ »

قالوا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ ، وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا
وَاحِدًا ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١) .

وقال سيدنا موسى لقومه :

« يَا قَوْمِ ، إِن كُنتُمْ آمِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ، إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ (٢) » .

وسيدنا يوسف يتجه إلى الله بالحمد ، والشكر ، والدعاء :

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ،
فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا
وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ (٣) » .

وأوحى الله إلى الحواريين أن : آمنوا بي ، وبرسولي .

« قَالُوا :

آمَنَّا ، وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٤) » .

(١) البقرة : ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) يونس : ٨٤ .

(٣) يوسف : ١٠١ .

(٤) المائدة : ١١١ .

ولما أحس عيسى من قومه الكفر ، سألهم قائلاً :

« مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ » .

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ :

« نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١) » .

على أن تسمية أتباع الدين الإسلامى - فى العصر الحاضر - بالمسلمين ، كانت تسمية سابقة على وجودهم الزمنى ، فلقد بين الله سبحانه فى آية من القرآن بعض جوانب الرسالة الملقاة على عاتق الأمة الإسلامية وأشار فيها إلى سيدنا إبراهيم ، وهى آية من آيات التوجيه الإلهى ، الذى يجب أن يكون شعار كل مسلم . فقال سبحانه :

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ، هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ) .

ومن البديهي أن يكون « الإسلام » بهذه المكانة من العموم ، والشمول فى المكان ، ومن عدم التحديد بالبعثة المحمدية ، فإن أساسه لا يختلف فيه اثنان ، وإن مبادئه الجوهرية حينما تعرض على النفوس المخلصة ، لا تجد إلا القبول والإذعان .

أساس الإسلام وجوهره

والقرآن يعرض الإسلام - في أساسه وجوهره - في كلمات قليلة ، لا مناص من الإيمان بها عندما يوجد الإخلاص ، يقول تعالى ، آمراً رسوله الكريم .

« قُلْ : إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ (١) » .
ويأمره صلى الله عليه وسلم ، في خطابه مع أهل الكتاب أن يقول لهم :
« قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٢) » .

ويبين لهم الله سبحانه وتعالى إحدى علامات الصادقين والمرسلين ، مفرقاً بهذه المناسبة بين الكفر ، والإيمان ، فيقول :
« مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ ، وَالْحُكْمَ ، وَالنَّبُوَّةَ ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ : كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ، بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ .
وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُتَّخَذُوا الْمَلَائِكَةَ ، وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ (٣) » .

(١) الأنبياء : ١٠٨ .

(٢) آل عمران : ٦٤ .

(٣) آل عمران ٧٩ - ٨٠ .

ويبين الله في عموم شامل ، وفي شمول عام - في صورة استفهام
تقريرى - جوهر الدين ، فيقول سبحانه :

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ؟ » .

ومن هذه الآيات السابقة ، نعرف أن جوهر الإسلام هو :

١ - في العقيدة : إسلام الوجه لله ، ومعنى إسلام الوجه لله :

الإيمان بوحديته ، كما ترشد إليه الآية الأولى ، مما أوردناه سابقاً ،
ووحديته سبحانه تقتضى « ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ،
ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً » .

إنها تقتضى ألا نتخذ « الملائكة والنبين أرباباً » .

وتقتضى أن نكون ربانيين ، والربانية في العقيدة ، أن يكون الله -

وحده - هو المقصود ، والمرجو .

٢ - أما في الأخلاق : فإن جوهر الإسلام هو : الإحسان .

والربانية كما تكون في العقيدة ، فإنها تكون في الأخلاق . والربانية
في الأخلاق أن يتخلق الإنسان بالأخلاق التى أمر الله بها .

والإسلام - إذن - كلمة شاملة لإسلام الوجه لله ، وللإحسان ،

والإحسان - فى الحقيقة - يؤسس على إسلام الوجه لله ، وينبع منه ،
فإسلام الوجه لله - فى النهاية - هو : الإسلام .

ولن يتأتى أن يعارض أحد ، أو يرفض إسلام الوجه لله ، إلا هؤلاء

الذين خلت قلوبهم من معنى الدين .

ومن البديهي - إذن - أن الإسلام - إسلام الوجه لله - هو طريق

الهداية .

« فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ »^(١) .
ومن شرح الله صدره للإسلام - إسلام وجهه لله - فهو على نور
من ربه .

« أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، فَوَيْلٌ
لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »^(٢) .
ومعنى إسلام الوجه لله : قد فسر الله سبحانه وتعالى حينما وضع

ذروته ممثلة في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول :
« قُلْ : إِنَّ صَلَاتِي ، وَنُسُكِي ، وَمَحْيَايَ ، وَمَمَاتِي ، لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ،
لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »^(٣) .
ولعل أول آية نزلت من القرآن الكريم ، تشير إلى هذا المعنى أيضاً ،
وكانت بذلك توجيهاً من أول الأمر إلى أن يكون العمل باسم الله ،
لا باسم شيء آخر ، أو كائن آخر .

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ »^(٤) .
وآيات أخرى أشارت إلى المعنى الذي نقصده ، ناهية عن أكل
ما لم يذكر اسم الله عليه :

« وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » .
أما ما ذبح على النصب ، فإنه فسق أيضاً ؛ لأنه لم يذكر اسم الله
عليه ، أو لأنه - بتعبير آخر - لم يرد به وجه الله تعالى .

(١) الأنعام : ١٢٥ .

(٢) الزمر : ٢٢ .

(٣) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٤) العلق : ١ .

والإسلام - إذن - وفي ضوء ما سبق ، هو الدين في إطلاقه المطلق ،
وفي تحديده المحدد ، فما لاشك فيه أنه لا دين خارج إسلام الوجه لله ،
وأن الدين - في معناه الصحيح - إنما هو إسلام الوجه لله ، وسواء
عرّفت الدين بهذا التعريف ، أو ذاك ، فإن معناه الصادق هو إسلام
الوجه لله .

ومن هنا كان لفظ الإسلام أصدق تعبير عن الدين ، وكانت القضية :
« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (١) » .

قضية لا شك فيها :

وكانت القضية المترتبة على هذه :

« وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢) » .

قضية - هي الأخرى - لا شك .

إن كل من يرفض إسلام الوجه لله ، إنما يرفض الدين .

وبمقدار بعد الإنسان أو قربه من إسلام الوجه لله ، يكون قربه

أو بعده من المعنى الصادق للدين .

وليس بغريب - والأمر كذلك - أن يتحدث القرآن الكريم

عن طائفة من أهل الكتاب ، انطوت جوانحهم على الإخلاص فيعلنون

إسلامهم بمجرد أن يتلى عليهم القرآن ، بل يعلنون أنهم كانوا من قبله

مسلمين ، يقول تعالى :

(١) آل عمران : ١٩ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .

« وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا ، وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (١) » .

والنتيجة المنطقية لما سبق ، ما أعلنه القرآن الكريم بقوله تعالى :
 « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ، وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ : كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » .

ويقول سبحانه :

« قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْمَاعِيلَ ، وَإِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ ، وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى ، وَعِيسَى ، وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٢) » .

وإسلام الوجه لله هو التوحيد ، وإذا كانت سمة النصرانية - في وضعها الراهن ، على ما يروى « البيروني » - هي التثليث ، فإن سمة الإسلام - حسبما يقول بحق - هي التوحيد . إنها توحيد الله بالربوبية ، بالخلق ، بالإيجاد ، بالإعطاء ، بالمنع .

(١) القصص : ٥١ - ٥٥ .

(٢) آل عمران : ٨٤ .

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِإِيدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(١) » .

إنه سبحانه وتعالى يملك الملك ، في اليسير منه ، والعظيم ، في الصحة ، في القوة ، في الجاه ، في الرزق ، في الغنى .
 وهو يملكه في الناحية القلبية : وقلب الإنسان بين إصبعين من أصابع الرحمن ، وهو يملكه في الهداية : « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ » .
 وهو يملكه في الآخرة : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » .
 إنه سبحانه وتعالى : المتصرف المطلق في الصغير والكبير ، لا يعزب عن علمه ، ولا عن قدرته ، ولا عن إرادته وحكمته مثقال ذرة في الأرض ، ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وهيمنته شاملة عاملة مطلقة .

ونعود فنذكر قوله تعالى :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ^(٢) » .
 أى فإن لم يعترفوا معكم ، بأنه يجب أن تخصص العبادة لله وحده ، وأن ينتفى الشرك به سبحانه ، وألا يتخذ المخلوقون بعضهم بعضاً أرباباً . . .
 أى فإن لم يعترفوا بهذا التوحيد ، وأعرضوا ، فأعلنوا : أنكم مسلمون أى موحدون .

(١) آل عمران : ٢٦ .

(٢) آل عمران : ٦٤ .

الإسلام هو التوحيد

والإسلام - كما كانت الأديان في نقائها ، وصفائها من قبل - إنما هو التوحيد ، وهو دعوة إلى التوحيد ، فالتوحيد : - أى إسلام الوجه لله - جوهره ، وأساسه . وكل تعاليمه ، ومبادئه : إنما هي توحيد ، وهي وسائل ومناهج للوصول بالإنسان إلى التوحيد : « أشهد أن لا إله إلا الله » ، إنها رسالة السماء الخالدة وأشهد أن محمداً رسول الله . . الذى بلغ الرسالة ، فأدى - بهذا التبليغ الصادق - الأمانة ، التى وكلت إليه ، وهي التوحيد .

التوحيد : هو مبدأ الإسلام وجوهره ، ولكن التوحيد ، ليس مجرد قول ، وليس مجرد كلمة لا أساس لها فى القلب والشعور . وإذا لم يؤمن الإنسان بالتوحيد إيماناً يملك عليه جميع أقطاره ، فيتغلغل فى جميع أنحاء شعوره ووجدانه ، ويغمر قلبه ونفسه ، ويكيف جسمه ، ويوجهه الوجهة السليمة . . . فإنه لا يكون كامل الإيمان . ومن أجل إيجاد الإنسان الموحد فى صورة واقعية . . . كانت تعاليم الإسلام .

فالصلاة إنما هي انفصال عن كل ما سوى الله ، من أجل الاتصال بالله ، فهي توحيد .

ومن هنا كان بدؤها « الله أكبر » لتشعر الإنسان من المبدأ أن جميع ما فى العالم من سادة ، وجميع ما فى العالم من بشر - تتعلق

بهم الآمال ، أو يناط بهم الرجاء - فإن الله أكبر منهم ، وأجل وأعظم ، فيجب أن تتعلق الآمال به وحده ، وأن يقتصر الرجاء عليه سبحانه .

ثم تتوالى جميع الأوضاع في الصلاة ؛ من قراءة ، وركوع ، وسجود ، وتشهد ، لتعلن - بكل حركة ، وبكل وضع - الانفصال عما سوى الله ، من أجل الاتجاه إلى الله وحده : ومن أجل إسلام الوجه إليه سبحانه .

والصوم : إنما هو تنزه عن المادة ، وعن السوء في القول ، والعمل ، فترة من الزمن ، من أجل مرضاة الله ، إنه تنزه عن نقص البشرية ، الذي يتمثل في شهوات المعدة ، لتخلص الروح فترة إلى التأمل في كمال الله .

إنه محاولة للتخلق بأخلاق الله ، لأنه - سبحانه - الكمال المطلق ، الذي لا يحتاج إلى شيء ، والذي لا بد لمن يأمل في شيء من الكمال ، من أن يتحلّى بما اراده - سبحانه - منه ، إنه تنزه عن النقص في سبيل التوحيد .

والزكاة : إنما هي بذل المادة في سبيل الله ، إنها بذل المادة ، التي يجرى وراءها البشر ، ويكادون يعبدونها ، بذلها بعد امتلاكها ، ، بذلها وقد كان فيها - لو أراد - الوسيلة للملاذ ، والشهوات ، إنها تجرد عن المادة ، توحيداً لله سبحانه .

وأما الحج - والله نسأل أن يكتبه لنا كل عام - فإنه تجريد كله ، إنه تجرد عن الماضي ، فهو في بدايته التوبة عن الذنوب ، والآثام - أى عن الفترات التي غفل الإنسان فيها عن ذكر الله - فأشرك معه غيره ، واتخذ إلهه هواه ، فنسى الله ، فوقع في المعصية ، والإثم .

هو تجرد ، حتى عن ملابس الماضي ، وهو تلبية من أول لحظاته ، تلبية هي استجابة لله - وحده - أو هي توحيد خالص ، إنها استجابة

كاملة للأمر بنفى الشريك .

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والمملك ، لا شريك لك » .

إن هذا النداء الذى يتعالى - وله عبير طيب ، وله سناء متألق .
فيصعد إلى السماء ، فتفتح له أبوابها ، إن هذا النداء إنما هو الانطواء
الكامل تحت راية التوحيد .

وتتوالى أعمال الحج كلها ، واضحة سافرة ، أو ومزية مستعلية ،
معلنة التوحيد ، منادية به ، طائفة وراءه ، ساعية من أجله ، واقفة
تستشرفه ، راجية من الله - سبحانه وتعالى - أن يقبل أصحابها فى زمرة
الموحدين . يقول الله تعالى :

« وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ، إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ ، أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ » .

هذه بعض معالم التوحيد فى العقيدة .

ومعالم التوحيد فى الأخلاق ألا يصدر عن الإنسان ، ولا يرد فى
سلوكه الشخصى ، أو فى سلوكه الاجتماعى أمر إلا عن توجيه إلهى .
ومعالم التوحيد فى « النية » أن يكون الإنسان - فى كل ما يأتى . وما
يدع - قاصداً وجه الله تعالى ، هو أن تكون حياته كلها لله ، وليست الحياة
وحدها ، وإنما الممات أيضاً .

والتوحيد - على العموم - هو أن يهب الإنسان نفسه لله ، فى قيامه ،
وجلوسه ، فى نومه ، ويقظته ، فى حديثه وصحته ، فى غضبه ، ورضاه ،
فى صداقته ، وعداوته ، فى بيعه وشرائه ، فى عمله وراحته ، فى أفكاره

وآرائه ، في توجيهه وإشاراته ، في نصائحه ، وتحذيراته ، في كل نفس يتنفسه ، أو طريقة عين يطرفها .

ونعود فنذكر - كقانون جامع - أن توحيد الإنسان : هو أن تكون صلاته ، ونسكه ، ومحياه ، ومماته لله رب العالمين ، لا شريك له .
ويقرب الإنسان من المثل الأعلى الإسلامي بمقدار قربه من هذه المعاني :

عقيدة ، وأخلاقاً ، ونية .

وقوله تعالى :

« الْاَللّٰهُ الدِّينَ الْخَالِصُ » .

إنما يشير بها إلى خلوصه من كل شائبة شرك . سواء أكان الشرك في العقيدة ، أم كان في الأخلاق والنية . والله - سبحانه - أغنى الشركاء ، فمن عمل عملاً لله ولغيره ، فإن الله - سبحانه - برىء من عمله ، وكذلك من اعتقد شريكاً لله ، فالله برىء منه .

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » . وذلك كله يسلمنا إلى أن المعنى الحقيقي للإسلام هو كما ذكرنا :

إسلام الوجه لله ،

ويعبر عن هذا في وضوح جميل الحديث الشريف الذي رواه

الصحابي الجليل عمرو بن عبسة قال :

قال رجل : يا رسول الله . ما الإسلام ؟

قال صلوات الله وسلامه عليه « أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك ^(١) » وما من شك في أن سلامة المسلمين من لسان الإنسان ويده إنما ترجع إلى إسلام قلبه لله ، وإنها على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » .

وعلى حد قوله صلى الله عليه وسلم :

« ألا إن في الجسد مضغة ، إذا صلحت ، صلح الجسد كله ، وإذا فسدت ، فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

إسلام الوجه لله

وقد يتساءل إنسان : وما كيفية إسلام الوجه لله ؟

- ما هى الوسائل لذلك ؟ .

- ما الطريق ؟ .

أما الوسائل : فإنها المبادئ الإلهية ، التى قررها الله - سبحانه . على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : قرآناً كانت ، أو سنة قولية ، أو عملية : ولا مناص لكل من يريد أن يسلم وجهه لله - سبحانه - من أن يرجع فى ذلك إلى القرآن ، ومن أن يرجع فى ذلك إلى السنة ، أى أنه لا مناص لكل من يريد الهداية ، أو التدين ، أو الحق ، من أن يلجأ إلى القرآن ، والسنة . وذلك أن القرآن الكريم ، إنما هو النص الوحيد

(١) رواه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح .

فى العالم الآن الذى يحتفظ - بحفظ الله له - بالتعبير الإلهى ، الذى يشرح الدين ، ويوضحه ، دون تحريف ، زيادة أو نقص ، والقرآن لم يحتفظ - بما أوحاه الله - بالمعنى فحسب ، وإنما احتفظ بالتعبير نفسه ، وهذه منزلة ، لا تدانيها منزلة ، ودرجة فى الدقة والصدق لا يضارعها غيرها حتى ولا من قرب . وإنها لمفخرة - للمسلمين كبرى ، أن يكون الدين الذى يدينون به ، إنما يرجعون فيه إلى النص الإلهى نفسه ، فى دقته ، وفى نضارته ، وفى بركته ، وفى سنائه ، ولألائه .

وإنها لمفخرة للغة العربية ، أن تحتفظ بالنص الإلهى الوحيد فى العالم ، أن تحتفظ بالكتاب الذى أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

* * *

أما النتيجة الأولى التى نريد أن نصل إليها ، فهى أن الدين ، وإسلام الوجه لله ، والتوحيد ، والإسلام كلها بمعنى واحد ، يفسر بعضها بعضاً . ويشرح بعضها بعضاً ، وكلها مطلقة عامة ، لا يحدها زمان ولا مكان . وكلمة « الإسلام » خير ما يعبر عنها فى جرسها ، وفى كمالها : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » .

والنتيجة الثانية : هى أن جوهر الشخصية الإسلامية ، أو شخصية المسلم ، إنما هى إسلام الوجه لله ، أو التوحيد ، أو التدين الصادق ، أو الإسلام .

وبمقدار قرب المسلم من الإسلام يكون كمال شخصيته .

في غيبة التشريع الإسلامي

وهذا الإسلام الذي نشأت عليه والذي أحمد الله حمداً جزيلاً على هذه النعمة الكبرى التي لا تعدّها نعمة قد طبق وخرج عن أن يكون مجرد مبادئ إلى أن أصبح واقعاً فأنّج بعقائده وأخلاقه وتشريعه خير أمة أخرجت للناس ، واستمر الإسلام يطبق التشريع الإلهي المعصوم عدة قرون إلى أن أنشأت مصر ما سمته المحاكم المختلطة وتخلت فيها عن التشريع الإسلامي وفي هذه الفترة بالذات بدأ الاحتلال وبدأ التخلي كلية عن التشريع الإسلامي فإنه حينما احتل المستعمرون أرض الإسلام بدأوا يهدمون كل ما يقوى الشعور الإسلامي في النفوس ، ومن أجل ذلك غيروا القوانين الإسلامية ، وأتوا بقوانين أوربية ألزموا بها أهل الأوطان المحتلة ، وأتوا بقضاة من بلادهم يحكمون بقوانينهم ، وينشرون تشريعهم ، ولم يكتفوا بذلك ، وإنما أنشأوا مدارس لتعليم القوانين الأوربية ، وأصبحت هذه المدارس كليات حينما أنشئت الجامعات : هي كليات الحقوق ، وهذه الكليات تدرس القوانين الأوربية ، وتنفق عليها الدولة لتخرج قضاة ووكلاء نيابة ومحامين تخصصوا في التشريع الأوربي ، واستمر الأمر كذلك سنين طويلاً ، فبدأ على مر الزمن وكأنه أمر طبيعي ، وأصبح انفصال المسلمين عن شريعتهم ، وإحلال شريعة أوربا محلها أمراً عادياً ، ولا يجدون غضاضة في إنفاق الأموال الطائلة على كليات تفصلهم عن تشريعهم الإسلامي . .

وما من شك في أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم أيام أن كان الاستعمار جاثماً على صدور الأمم الإسلامية يأمر فيها وينهى ، ولكن الاستعمار قد خذله الله وانهمزم ، ورجع المستعمرون إلى بلادهم ، وكان من الطبيعي أن يزيل المسلمون آثار الاستعمار في :

- * التعليم الذي وضع المستعمر برامجه لتخرج مجرد موظفين .
 - * وفي اللغة التي كان يحاول أن يقضي عليها كما فعل في الجزائر . .
 - * وفي الأخلاق التي حاول أن ينزل بها إلى مستوى لا تنهض معه أمة . .
 - * وفي التشريع الذي جعله أوربياً وأحله محل شريعة الإسلام .
- ومهما تكن مقاومة آثار الاستعمار في ميادين مختلفة مما أفسده ، فإن مقاومة هذه الآثار وإزالتها في مجال التشريع لا نجد لها أثراً في وزارات العدل في مختلف الأقطار الإسلامية ، ولا نجد لها أثراً في دوائر القضاء . .
- ومن سخرية الأقدار أن يقول قائل : وأين هو القانون الإسلامي الذي نحكم به ؟

إن القانون الإسلامي في كتب الفقه الإسلامي ، وكتب الفقه هذه ، كتب عربية ، ألفاظها عربية ، وجملها عربية ، وخطها عربي . .

ولقد وصل الأمر بالاستعمار أن صاغ خريجي كليات الحقوق بحيث لا يفهمون بعد اللسان كتاباً عربياً في المواد التشريعية ، وليس الأمر بغريب ؟ . .

أتدري أيها القارئ الكريم أن جدول التدريس في كليات الحقوق يخصص عشرين محاضرة في الأسبوع للقوانين الأوربية ، ومحاضرتين

فقط للشريعة الإسلامية ؟ . .

أترى لو أنشئت هذه الكليات في فرنسا أو في إنجلترا أكانت تفعل أكثر من ذلك ؟ . . وهذه الكليات هي السرفى تخلفنا في مجال التشريع ، وذلك أنها دفعتنا بالتبعية للمشرعين الغربيين تدور في فلكهم ، وتسير على خطواتهم . .

والتشريع الإسلامى من مفاخر الحضارة الإسلامية ، ورجاله من نوابغ المفكرين في العالم ، لكننا الآن - بعد ذلك النبوغ وتلك العبقرية - قد أصبحنا أتباعاً مقلدين . .

وهذا الموضوع أطرحه أمام القادة ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً فيما يتعلق بهذه الكليات . .

ولكن السؤال الملح الذى يطرح نفسه بعد ذلك هو ما حدث في غيبة التشريع الإسلامى ، ماذا حدث ؟ شر كله . . وإبنى حينما أتحدث عن فترة غيبة التشريع الإسلامى التى مازالت مستمرة لا أتحدث عن مصر وحدها وإنما أتحدث عن كل الدول التى غاب عنها التشريع الإسلامى وما زال غائبا . .

أتحدث عن كل من الدول التى تنتسب إلى الإسلام وقد ألغت شريعة الله فيها . .

ماذا حدث في غيبة التشريع الإسلامى ؟

١ - حدث كل هذا الرجس الذى نراه ونشاهده أينما سرنا : في المعاملات ، وفي السلوك ، وفي العقيدة ، وفي الاستهتار بالقيم الدينية استهتاراً بلغ من شأنه أن أصبح الإلحاد في دين الله من الأمور التى تمر

فلا تسترعى الانتباه ، الإلحاد في دين الله كفراً وارْتداداً ، والإلحاد في دين الله استهتاراً بالقيم الدينية . .

٢ - والإلحاد في دين الله جدلاً في الحدود القاطعة التي فرضها الله عقاباً على الجرائم .

وإذا أخذنا الآن بعض الأمثلة فإننا نقول :

إن قطع يد السارق أمر فرضه الله لاختلاف فيه ، وهو علاج ناجع ضد السرقة ، ويكفي أن يرى الناس الجلد في التنفيذ ، يكفي أن تقطع يد سارق أو اثنين أو عدد لا يصل إلى أن يعد على أصابع اليد ، فتمتنع عن السرقة نهائياً . .

وقد تمر أعوام لا تقطع فيها يد ، وذلك أن طابع الحد يجعل كل من تسول له نفسه السرقة ينظر إلى يده فيتخيلها مقطوعة ، فيهرب ويهرب من مجرد التفكير في الأمر . .

ولكن ذوى التفكير المنحرف يهرجون بأن الأيدي سيقطع كثير منها فتكون البطالة ، وتقل الأيدي العاملة ، ويقل الإنتاج ، ويستمررون في هذا التهريج كلما دعا داع إلى كتاب الله . .

وفي غيبة التشريع الإسلامى أنشأت الدول المستعمرة في بعض الأقطار الإسلامية مزارع ومصانع لإنتاج الخمر ، والخمر على حد الوصف في القرآن : « رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » . قليلها حرام ، وكثيرها حرام ، واتخاذها كدواء حرام ، فما جعل الله دواء أمتى - كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما حرم عليها . . وقد ذهب الاستعمار إلى غير رجعة ، وكان من الواجب على هذه الدول أن تغير الوضع الاقتصادي فيها .

فتقتضى على المزارع والمصانع التى أعدت من قبل لإنتاج الخمر . .
فلا بد من تحريم ما وصفه الله بأنه رجس من عمل الشيطان فى كل
الدول الإسلامية . .

٣ - وفى غيبة التشريع الإسلامى كان هذا الطوفان من العرى ، ومن
كتب الجنس ، ومن هذه الأفلام التى تثير الغرائز وتفسد الشباب ، والتى
تنفق عليها الدول أموالاً طائلة وتخسر الملايين فى سبيل ذلك . .
ومن المصائب التى تبكى أن يفكر فى إنشاء المسارح فى الأحياء
الدينية ، وفى شهر رمضان ، وكأن إنشاء مسرح للمطربين والمطربات و . . و .
من صميم الدين ؟ وكان الأولى أن يقام سرادق للقرآن أو الدعوة الإسلامية
فى المناسبات الدينية ، وفى كل الأوقات . .

٤ - وفى غيبة التشريع الإسلامى كان الربا ، وكثرت الرشوة
والاختلاسات ، وكان كل هذا الرجس الذى تعيش فيه بعض الأقطار . .
ولينظر إلى كلمات الله تعالى ، فنجدده سبحانه يقول :

« وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » . . ويقول :
« وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » . . ويقول :
« وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » ويقول :
« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

والواقع أن الحكم بما أنزل الله هو إقامة حدود الله ، والله سبحانه وتعالى
يقول فى الصفات الإيمانية عن المؤمنين :
« . . . وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ » .

وحفظ حدود الله ، وإقامة حدود الله ، إنما هي لكل إنسان بحسب موقعه في المجتمع . .

فإذا ما طبق المجتمع حدود الله والتزمها ، فإن الله سبحانه يمدّه بنصر دائم ، وهو سبحانه يمدّ بهذا النصر الفرد إذا التزم حدود الله ، ويمدّ به المجتمع إذا طبق حدود الله ، وقد أبان الله سبحانه وتعالى ذلك ، إنه سبحانه يقول :

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

أما دوام النصر فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنه :

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا . . »

وما من شك في أن النصر من عند الله وحده :

« وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » .

وما من شك في أنه إذا نصر الله فلا غالب لمن نصره :

« إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ » .

ولقد وضع سبحانه قوانين للنصر ، ووضع قوانين لدوام النصر ، وكلها تتركز في طاعته فيما أمر ، وفي الانتهاء عما نهى .

أيها الإخوة المؤمنون ، إن قوله تعالى :

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

يجب أن يدوى دائماً في آذاننا ، وأن يكون دائماً على ألسنتنا ، وأن تمتلئ به قلوبنا ، وأن نحقق التقوى . .

وإن الذين يحبون أن يكونوا في عداد من رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لن يصلوا إلى هذا الرضوان إلا إذا عملوا على نشر كلمة الله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، والطريق أمامهم مفتوح للعمل والنشاط . .

ويكفى إرادة الخير ، ونية الخير ، ليصلوا إلى مرضاة الله ، وليكونوا في زمرة من رضى الله عنهم ورضوا عنه ويكونوا من حزب الله :
« أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . .

وبعد :

فلا ريب في أن جهادنا المقدس للنهوض بالمجتمع ، كل ذلك لم يفته بعد ، ومن أجل الوصول بجهادنا إلى غايته التي نرجوه لها ؛ وهى تطبيق الإسلام بجميع كلياته وجزئياته ، يجب على كل منا أن يتحمل مسئوليته في ذلك بحسب موقعه في المجتمع .

إن القرآن الكريم يستعمل مادة « أمر » حينما يتحدث عن مسئولية كل منا تجاه المجتمع الإسلامى :

« تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

والرسول صلى الله عليه وسلم يستعمل « أمر » كذلك .

عن حذيفة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن

الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » .

(رواه الترمذى وحسنه) .

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحابٌ يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدَهُم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدَهُم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدَهُم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل . »

فإذا ما تحمل كل منا مسئوليته بحسب موقعه في المجتمع عاد أمر الأمة الإسلامية على ما كان عليه : قوة وعزة ومرضاة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثالث

فت الأزهـر



ارتباط المعهد بالمسجد

وكان المسجد - طيلة القرون الماضية ، منذ بدأ الإسلام ، إلى عهد قريب - يرتبط بالمعهد - أى يرتبط بالعلم - برباط وثيق .
وكان المعهد « العلم » شديد الارتباط بالمسجد ، لقد فقدنا - نحن الآن - فكرة « المسجد المعهد » أو « المعهد المسجد » ، ويجب أن نحياها من جديد ، ونعود إليها .

إنه فرق هائل أن تدرس تفسير القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، والفقه ، فى المسجد ، وأن تدرس ذلك فى غرفة فى مبنى ، لا يشع منه ما يشع فى المسجد من نور الإيمان ، وجلال المكان ، وعبير العبادة .

لقد كان « الإمام مالك » رضى الله عنه ، يتوضأ ، ويلبس أحسن ملابسه ، ويتعطر ، ثم يذهب لشرح الحديث الشريف فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن حياة المسجد بالمعهد ، وحياة المعهد بالمسجد ، وينبغى أن يعود الارتباط بينهما وثيقاً كما كان .

وفى أول يوم لبدء الدراسة ، ارتفع صوت المؤذن لصلاة الظهر - عندما حان وقته - فى خشوع وجلال ، وتأهبنا للصلاة ، . وتختلف

بعض الطلبة عن القيام لها . إما لأنهم لم يتسلحوا بالوضوء من قبل والوضوء سلاح المؤمن - وإما على سبيل الكسل والتهاون ، وإما لأنهم لم يتعودوا الصلاة في أول وقتها . . . وأياً ما كان سبب التقاعد عن الصلاة ، فقد أخذت « خيزرانة » المراقب تؤدي واجبها - نحو المتقاعدين - في جد ، ونشاط ، وفراً الطلبة أمام المراقب ، وهو يلاحقهم ، . . . ثم تعودوا - بعد ذلك - أداء الصلاة لوقتها ، لم يتكاسل منهم أحد .

الزواج المبكر عصمة وعفة

في منتصف العام - تقريباً - زارني والدي - رحمه الله تعالى - في المعهد المسجد ، ولعله جاء إلى المعهد - بالذات - ليقف على مدى انتظامي في الدراسة ! ولعله - أولاً - أخذ يراقبني عن بعد ، ثم التقى بي ، وشرع يحدثني عن « الزواج » وعرض عليّ أسماء فتيات ، واستطلع رأيي . كانت سني - آنذاك - ثلاث عشرة سنة . وكان رأيي الذي قلته له : « الأمر لك ، ولوالدتي » !

وعاد والدي إلى « العزبة » . ومضت فترة ، جاءني بعدها خطاب ، يقول فيه والدي :

« إن الأسرة كلها في شوق إليك ، فاحضر ، لتراك ، ولتطفي غلة شوقها إليك .

وعدت إلى « العزبة » في مساء الأربعاء ، . . . وتمّ عقد زواجي في يوم الخميس ، . . . وعدت إلى القاهرة في يوم الجمعة . . .

هذا الزواج المبكر - إذا كانت الحال ميسورة - ماذا تقول فيه ؟ .

إنه عصمة ، وعفة ! !

وما من شك في أن الآراء تختلف في شأنه ؛ ولكن الأمر الذي لا مرية فيه ، هو أن تأخير الزواج . - كما هو الشأن الآن - فيه خطورة كبيرة على الذكور ، وعلى الإناث أيضاً ، خطورة على العصمة ، وعلى العفة . ولا يمارى في ذلك إلا مكابر أو متجاهل .

ولعل خير ما نذكره في ذلك ، ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ناصحاً الشباب :

« يا معشر الشباب ! من استطاع منكم الباءة ^(١) فليتزوج ؛ ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء ^(٢) » .

الاحتفال بزفافي

. . . ونجحت في الامتحان ، وعدت لأقضى العطلة الصيفية بين الأهل في « العزبة » . واتهزوها فرصة ، لإتمام الزواج بالزفاف : وركبت الفرس - كما هي العادة في الريف - وطاف بي في شوارع « العزبة » وحولها ، وتعالى الزغاريد ودقت الطبول ، وصدحت المزامير ، وأطلقت الأعيرة النارية بكثرة غير معهودة ، وارتفعت أصوات الغناء ، . . ثم مدت الموائد ، واجتمع الناس على طعام كثير ، وخير وفير ، . . .

(١) الباءة : النفقة .

(٢) وجاء : الحفظ والصون .

ثم كان ذكر لله تعالى ، وقرآن يتلوه قراء مشهورون . وسهر الناس - سكان « العزبة » ، وما جاورها - ليلة ممتعة ، ظل طيفها ماثلاً في الأذهان سنوات طويلة ، يتحدث به من شاهده .
 مضى - على ذلك الآن - أكثر من نصف قرن ، وما زالت الحياة تسير بي وبزوجي ، رخاء . والحمد لله .
 ومرت السنة الثانية - بالأزهر ، طبيعية - دراسة ، واستذكاراً ، قضيناها بمسجد « المؤيد » . وهو مسجد جميل ، أحببناه ، وأحببنا مواصلة الدراسة فيه .
 وفي خلال هذين العامين شهدت موقفين كانا في غاية الروعة :

سعد . . . عائد من المنفى

أما المنظر الأول فهو منظر استقبال « سعد باشا » وهو عائد من المنفى . . .
 لقد خرجت القاهرة على بكرة أبيها ، خرج رجالها ونساؤها شبابها وفتياتها . تستقبل « سعداً » في حماس بالغ . . .
 وخرج الأزهر بخطبائه ، وبشعرائه ، وكان الهمس يدوي - في كل مكان - عالياً ، مؤثراً . . . كان الشعور العام كله في غمرة من الفرح . . .
 كان منظرًا رائعاً ، فريداً لا ينسى .

إضراب الأزهر

وأما ثانيهما فقد كان منظر إضراب الأزهر : كان الأزهر هائجاً مائجاً ، وكانت الوزارة القائمة وزارة « سعد باشا زغلول » حينذاك لم أكن أعلم - آنذاك - عن الأسباب والبواعث والغايات شيئاً ، ومع ذلك ذهبت إلى الجامع الأزهر مشاركاً « بجسمى » ، متفرجاً ، مستطلعاً .

وكان المشايخ « الطلبة » ينتظرون قدوم شخص من قبل « سعد باشا » . وجاء الشخص : شاب ، وسيم ، قتي ، يمتلئ حيوية ونشاطاً ، يكاد يقفز في خطواته ، يشبه أن يكون متحفزاً ، دائم التحفز ، وتكاد كلماته أن تتدفق بنفسها من فمه ، عذبة ، قوية ، مقنعة : وكان هذا الشاب هو « إبراهيم عبد الهادي » .

اعتلى منبر الأزهر ، وخطب ، وخيل إلى - إذ ذاك - أنه أفاد وأقنع ، وأنه بلغ في الإقناع درجة لا تقبل المناقشة ، وتلفت يميناً وشمالاً ، لأرى الأزهرى الذى يتصدى لخطر الرد !

وقام الأزهرى ! وكان الشيخ « محمد الأودن » رحمه الله ، وغفر له وتحديث وأجاد ، وأخذت حججه تتوالى قوية ، فياضة ، متدفقة ، متماسكة ، وأرضى شعور الأزهريين ، ببلاغته ، وإجادته .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ لا أدرى .

فيم كان الإضراب ؟ وعلام تم الاتفاق ؟ .

كل ذلك لا أدرى عنه شيئاً .

التحاق بمعهد الزقازيق

أما في السنة الثالثة ، فقد طرأ تغيير - إلى حد كبير - فقد انتقلنا من المسجد - الذى ألفنا الدراسة فيه ، وعشقناها ، إلى غرفة فى مبنى ، ليس له قداسة المسجد ولا روحانيته ، انتقلنا إلى « معهد الزقازيق » . الذى أنشئ ليكون فرعاً للأزهر بالشرقية .

التحقت بمعهد الزقازيق فى أول يوم لافتتاحه ، ورأيت فى ذلك اليوم ، المرحوم « الشيخ إبراهيم الجبالى » بقامته الفارعة ، وجسمه المليء ، وملابسه الفضفاضة ، وصوته الجهورى ، وسمته المهيبة ، فقد كان - رحمه الله - عالماً ، أديباً ، كاتباً ، متحدثاً ، لبقاً .

خطب فينا ، ونصحنا ووعظنا ، وتأثرنا بحديثه تأثيراً عميقاً . ثم انتظمنا فى سلك الدراسة بالمعهد .

اتصالى بالصحافة

وفى معهد الزقازيق بدأ اتصالنا بالصحافة ، حيث بدأنا نقرأ الصحف ، وكنا - إذ ذاك - نقتصر على صحيفة واحدة تقريباً .

هى صحيفة « الأخبار » التى كان يصدرها « أمين الرافعى » عليه رحمة الله تعالى .

أمين الرافعي وصحيفة الأخبار

كان يتمثل في هذه الصحيفة تياران :

تيار المعارضة : وكانت الصحف - في ذلك الزمن - حرة كل الحرية ، لا تقيدها قيود ، ولا تحول دون هجومها على ما يجافي الحق - من وجهة نظرها - حوائل . كانت تنقد كل معوج ، وتناقش كل أمر ، لا تراه يمثل المصلحة العامة ، ومن أجل هذه العيون الساهرة من الناقلين ، كانت الأفراد ، وكانت الحكومات لا تقدم على عمل ما ، يُشهر بها فيه ، وربما أقدم الفرد ، أو أقدمت الحكومة على عمل ، فواجهها النقد صريحاً ، بناءً ، جريئاً صاخباً ، فيتراجع الفرد ، وتراجع الحكومة عن المعنى في هذا العمل .

ولهذا كان هناك نوع من الاستقامة ، لا تجده في العهود التي كملت فيها أفواه الصحافة ، وحجر على حريتها . . . ويرحم الله « أمين الرافعي » ؛ فقد كان سوط عذاب على كل منحرف ، وعاش شريفاً طيلة حياته .

مقالات الشيخ محمد شاكر

أما التيار الثاني : الذي كان يتمثل في جريدة « الأخبار » : فإنه احترام الدين احتراماً تاماً ، والعملُ الدائب الدائم على نشر الوعي الديني .

وكان صدرها مفتوحاً لعلماء الدين ، يجدون فيها متنفساً لكل ما يجيش
بصدورهم من آراء وأفكار .

وكنا - ونحن طلبة - نَسعد بقراءة المقالات الدينية ، وكنا ننتظر -
في شوق ولهفة - مقالات المرحوم « الشيخ محمد شاكر » . كان قلمه
قلم أديب ، وفكرته فكرة عالم ضليع ، وتنسيقه للأفكار - في تسلسلها :
مقدماتها ، ونتائجها - رائع .

ولقد رجوت نجله الأستاذ الأديب الكبير ، العملاق ، « محمود شاكر »
أكثر من مرة ، أن يجمع آثار والده ، وآمل أن يوفقه الله تعالى إلى ذلك ،
لينتفع بها الناس .

ومن الممكن أن نقول : إن جريدة « الأخبار » كأن يسيطر عليها
الجو الديني - بصفة عامة - ولا نملك الآن إلا أن نضرب إلى الله تعالى
أن يفيض على صاحبها « أمين الرافعي » شآبيب رحمته ، إنه تعالى نعم
المجيب .

شوقي يرثي الرافعي

وحينما انتقل أمين الرافعي إلى رحمة الله تعالى قال فيه أمير الشعراء :
شوقي ، قصيدة نفيسة نشرت في شوقياته ، ننقل منها ما يلي .

أخذ الموتُ من يدِ الحقِّ سيفاً	خالديَّ الغرَّارِ ^(١) عضباً صقيلاً
من سيوفِ الجهادِ فولاذُه الحـ	قُ فهلُ كانَ قَيْنُه جَبْرِيلَا
لمَسْتَه يدُ السَّماءِ فكان الـ	برقَ والرَّعدَ خفَقَةً وصليلَا

(١) الغرَّار : حد السيف ، والعضب : السيف .

فِ عَلَى كَفِّ فَارِسٍ مَسْلُولا
 مَأْ وَصَدْرُ أَصَارِهِ الْحَقُّ غِيلا (١)
 بِرَ أَرَاخَ الْبَيَانِ وَالتَّحْلِيلَا
 لِمَحَّةٍ حَرَّةٍ ، وَصَبْرًا جَمِيلَا
 رَ إِذَا طَافَ بِالرِّجَالِ مَهُولَا
 مَا تَلَاقِيهِ يَوْمَ جُوعٍ هَزِيلَا
 عَتَ وَلَا تَأْكُلِ اللَّبَاءَ الشُّبُولَا
 قَدْ يَكُونُ الْغُلُو رَأْيَا أَصِيلَا
 وَقَدِيمَا بَنَى الْغُلُو عَقُولَا
 فِي الشَّبَابِ الطَّمَاحِ وَالتَّأْمِيلَا
 أَوْ يَكُونُ اتِّجَاهُهُ التَّضْلِيلَا
 يَشْبَهُ الْبَغْيَ وَالْخَنَاءَ وَالْفُضُولَا
 رَافِعِينَ وَالْعُصَافَ سَيِيلَا
 حَلَّ شُؤْنِ النُّفُوسِ قَالَا وَقِيلَا
 أُيْقِظُوا النِّيلَ وَادِيَا وَنَزِيلَا
 فِ حُزُونًا وَكَالرَّقِيمِ سَهُولَا
 لَمْ تَحْنُ مِصْرَ فِي الْحَقُوقِ فَتِيلَا
 الْحَقُّ عَلَى نِيلِهَا الْمُبَارَكِ نِيلَا
 كَ مُكِبًّا عَلَيْهِمَا مَشْغُولَا
 كَ ضُثِيلَا وَمَا خُلِقْتَ ضُثِيلَا

وَإِيَاءُ الرِّجَالِ أَمْضَى مِنَ السَّيْرِ
 رَبُّ قَلْبٍ أَصَارُهُ الْخُلُقُ ضِرْغَا
 قِيلَ : حَلَّاهُ ، قُلْتُ : عَرَقَ مِنَ اللَّهِ
 لَمْ يَزِدْ فِي الْحَدِيدِ وَالنَّارِ إِلَّا
 لَمْ يَخَفْ فِي حَيَاتِهِ شَيْخَ الْفَقْرِ
 جَاعَ حِينًا فَكَانَ كَاللِّبْثِ أَبِي
 تَأْكُلُ الْهَرَّةُ الصُّغَارَ إِذَا جَا
 قِيلَ : غَالٍ فِي الرَّأْيِ ، قُلْتُ : هَبْوه
 وَقَدِيمًا بَنَى الْغُلُو نَفُوسًا
 وَكَمْ اسْتَنْهَضَ الشُّيُوخَ وَأَذَكِي
 وَمَنِ الرَّأْيُ مَا يَكُونُ نِفَاقًا
 وَمَنِ النُّقْدُ وَالْجَدَالُ كَلَامًا
 وَأَرَى الصَّدَقَ دِيدَنًا لَسْلِيلًا
 عَاشَ لَمْ يَغْتَبِ الرِّجَالُ وَلَمْ يَجِ
 قَدْ فَقَدْنَا بِهِ بَقِيَّةَ رَهْطِ
 حَرَّكَوهُ وَكَانَ بِالْأَمْسِ كَالْكُهْ
 يَا أَمِينَ الْحَقُوقِ أَدَّتْ حَتَّى
 وَلَوْ اسْتَطَعْتُ زِدْتُ مِصْرَ مِنْ
 لَسْتُ أَنْسَاكَ قَابِعًا بَيْنَ دُرْجِي
 قَدْ تَوَارَيْتَ فِي الْخَشُوعِ فَخَالُوا

(١) الْغِيلُ : مَوْضِعُ الْأَسَدِ .

سائل « الشعب » عنك « والعلم » الـ
 كم إمام قربت في الصف منه
 تنشُد الناس في القضية لحناً
 ماضياً في الجهاد لم تتأخر
 ما تبالي مضيت وحدك تحمي
 إن يفت فيك منبر الأمس شعري
 جل عن منشد سوى الدهر يلقي

خفاق أو سائل « اللواء » الظليلا
 ومغن قعدت منه رسيلا
 كالحواري رتل الإنجيلا
 تزن الصف أو تقيم الرعيلا
 حوزة الحق أم مضيت قبلا
 إن لي المنبر الذي لن يزولا
 ه على الغابرين جيلا فجيلا

صحف تابعة وملحدة ومأجورة

وإذا كنا قد سعدنا بجريدة « الأخبار » آنذاك ؛ فقد شقينا ببعض
 الجرائد والمجلات ، في العصر الحاضر : شقينا بها ؛ لأنها أصبحت تابعة ،
 وأصبحت ملحدة ، وأصبحت مأجورة .
 والتابعة - دائماً - مدّاحة ، مصفقة ، شأنها الطبل والزمر ،
 لا يرجى منها إصلاح ، أو اتجاه نحو الإصلاح . إنها صوت المتبوع بالحق ،
 وبالباطل .

والملحدة في جودائم من سخط الله تعالى ومقته ؛ فهي هدامة لكل
 القيم ، تروج للانحراف ، وتدعو إليه ، لا تعرف الفضيلة ؛ بل تهدمها :
 تهدمها بالقلم ، وتهدمها بالصورة ، وبالقصة ، وبالتمثيلية وبشتى
 الطرق والوسائل .

والمستغرب ، أن هذا اللون من الصحف والمجلات - التابع

الملحد المأجور لا يجد من المسؤولين - ردعاً ، حين يهاجم الدين ، ويتناول على علمائه ، وكأن المسؤولين عن الصحافة - على متابعتهم وتغيرهم - لا يعنيه شأن الدين ، في قليل ولا في كثير .

ونريد أن نقول في صراحة : إن الذين لا يعنيه شأن الدين ، قد تجردوا من الوطنية ، ومن الفضيلة . أما كونهم ليسوا بوطنيين ، فإن الوطني يعنيه أن تسود الفضيلة وأن يسود الأمن في المجتمع ، وأن يكون الأفراد والجماعات متمسكين بمكارم الأخلاق ، مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وفي سبيل وطنهم . وكل هذا لا يكون إلا بنشر الوعي الديني ، وبالتالي تقوية الشعور الديني في النفوس .

وأما كونهم ليسوا بفضلاء ، فهو بين نفسه ، فالملحد لا يعرف الخلق الكريم ، والحياة - بالنسبة له - فترة استمتاع ، بكل وسائل المتع ؛ إنه لا يعرف الحرام ؛ حتى يجتنبه .

ولقد كتبت مرة ما يلي :

حرية الصحافة

الصحافة حرة في حدود القانون .

وهي حرة في حدود الدستور .

ولكنها من قبل ذلك ومن بعده حرة في حدود الإسلام .

ثم هي من قبل ذلك ومن بعده حرة في حدود الأخلاق .

على أن القانون والدستور قائمان على أن دين الدولة الإسلام ،

وعلى أن الخلق أساس المجتمع ، وعلى أن كل تيار يهوى بأفراد المجتمع نحو الشذوذ والانحراف إنما هو تيار آثم .
نقول ذلك بمناسبة الحديث عن حرية الصحافة ، والحديث عن أدب الجنس .

وما لاشك فيه أن أدب الجنس لا يرتبط بالخلق الكريم إلا بالرباط العكسي ، وأن الرجل الكريم على نفسه وعلى الله لا ينحدر إلى هذا المستوى المكشوف الذي لا يتمثل فيه السموات الروحي وإنما تتمثل فيه الغريزة الشهوانية الجنسية في أحط مظهر يمكن أن تظهر فيه . .
وهذا الأدب الجنسي يجد رواجاً لدى المراهقين ، وهذا الرواج معناه ثروة طائلة للمؤلف ، ومن أجل ذلك ، من أجل المال المكتسب بطريق خبيث يكتب الكتاب المنحرفون عن أدب الجنس .

وهؤلاء الكتاب لا يعرفون المثل العليا ولا المبادئ الشريفة ، وإنما همهم كل همهم المال من أجل اللذات ، ومن أجل الجنس ، أما الوطن ومصلحته ، وأما إفسادهم المراهقين ، ونشرهم الفساد متأثرين بأدب الجنس فذلك لا يثير ضميرهم الضحل في كثير ولا قليل .

ولقد سارت فرنسا في هذا الاتجاه بعد الحرب العالمية الأولى فكانت النتيجة أن دمرتها ألمانيا في أيام معدودة ، ولقد أعلن زعيمها الماريشال بيتان - إذ ذاك - السبب في انهيارها ، فلم يكن إلا تطبيق أدب الجنس ، والسير وراء كتاب أدب الجنس لتحقيق مثلهم السافلة .

هؤلاء الكتاب مثلهم في الوطن كممثل الميكروب الخبيث ، بل إن خطرهم أشد ، وكما تحاسب الدولة الميكروب فتقضى عليه بالوسائل

المناسبة فكذلك الأمر بالنسبة لهؤلاء الكتاب الذين تتمثل فيهم العداوة الكاملة للفضيلة ، وبالتالي للوطن .
ولا يجوز قط أن تتخذ حرية الصحافة دعامة ليقول الكاتب ما يشاء ،
فإن مقدسات الأمة إذا هدمت بالأقلام الخبيثة فإن مصير الأمة إلى
الانهيار .

وعلى هذا يجب - في منطق الأخلاق والوطن ، ولمصلحة الأخلاق
والوطن - أن تضرب الدولة بيد من حديد على كل من يعيث فساداً
في مقدساتها : أخلاقاً ودينياً ، مسمياً الدعوة السافرة إلى الانحلال
أدبياً ، وما هي إلا انعكاسات نفس شهوانية ظهرت على قلم كاتب
لا يمت إلى الفضيلة بصلة . .
ورجاؤنا إذن حفاظاً على الدين والأخلاق والوطن ، وإنقاذاً
للمراهقين ، أن تتكون في الدولة رقابة خاصة بالكتب والصحف ووسائل
الإعلام ، تراعى المثل العليا والمبادئ الشريفة .
وبالله التوفيق .

فصلت نفسي من المعهد

انتهت السنة الثالثة بمعهد الزقازيق ، وكذلك انتهت السنة الرابعة
به أيضاً . . . وفي هاتين السنتين ، دفعني الظروف للجهد والاجتهاد -
بصورة غير عادية - فقد تقدمت لعدد من المسابقات ، آملاً النجاح
فيها ، وبذلك حصلت على معلومات - في مختلف العلوم والفنون -

تفوق المعلومات العادية ، لنظائري من الطلاب .
 فلما نقلت إلى السنة الأولى من القسم الثانوى رأيت أن الوقت فيها -
 بالنسبة لى ضائع أوشبه ضائع ؛ لأن ما لدى من علوم ومعرفة تتخطى
 حدود المقررات فى هذه السنة وما يليها
 وكانت نظم الأزهر - حينذاك - تبيح للطلاب بالسنة الأولى الثانوية ،
 أن يتقدم مباشرة - لامتحان الشهادة الثانوية الأزهرية ، من الخارج .
 وفكرت فى الأمر : فكرت فى أن أفصل نفسى من الأزهر ، وأن
 أتقدم ، فى آخر العام - من الخارج . لامتحان الشهادة الثانوية .
 وبعد تفكير طويل ، كان العزم وكان التصميم ، وفصلت نفسى من
 المعهد ، ولم أخبر بذلك والدى ، ولا أحداً من أسرتى .

رسبوا جميعاً . . إلا واحداً

واعتكفت فى المنزل ، أوصل الليل بالنهار فى المذاكرة ، والاستقصاء .
 وأديت الامتحان فى آخر العام ، وترقبت النتيجة ، ولم يطل بى الانتظار ،
 فقد أسفرت عن رسوب جميع الطلبة المتقدمين من الخارج رسوباً لا يبيح
 لهم دخول الدور الثانى ، ماعداً طالباً واحداً ، فإن له دوراً ثانياً فى النحو
 والصرف اسمه : « عبد الحلیم محمود » هو أنا ! . .

والحمد لله على هذا .

ألفية ابن مالك

ماذا أفعل في النحو والصرف . ؟ طرحت على نفسي هذا السؤال . !
ثم قلت ، إن النحو والصرف لا يخرجان عن « ألفية ابن مالك » .
فإذا حفظتها عن ظهر قلب . فقد ضمنت - بتوفيق الله تعالى - النجاح . . .
واستغرقت في حفظها ؛ وحفظتها في إتقان . . . ودخلت الامتحان !
وتسلمت الأسئلة ، ثم أجبت عليها - في سهولة ويسر كنت أستحضر
« بيوت » الألفية التي يتناولها السؤال ، وأشرحها بشيء من الدقة . . .
ونجحت . . . وأرضى ذلك آمال والدي وشعوره نحوي . والحمد لله .

الأزهر

وعدت من جديد إلى القاهرة ، في المسجد الشريف ، (الأزهر) .
« لقد قال لي مرة أحد كبار المفكرين الغربيين : إن جدران الأزهر
وأعمدة الأزهر ، وأرض الأزهر ، وجو الأزهر ، كل ذلك مشبع بالعلم
منذ مئات السنين » .

إنك في الأزهر تعيش في جو الإيمان ، وفي جو العلم ، وفي تاريخ
عريق ، كله يدور حول العلم .

وإنك في جو الأزهر تعيش في جو من الجهاد ساد طيلة عشرة قرون ،
حفظ على الأمة لغتها ، وحفظ عليها تراثها النفيس ، وحفظ عليها وعيها الديني

ولعل الدولة تعترف بذلك عملياً ، فتعطي الأزهر ما يحتاج إليه
(كل ما يحتاج إليه) حتى يصمد للنضال في سبيل الله
ومكثت في الدراسة أربع سنوات ، كنت في أثنائها متصلاً
اتصالاً كبيراً بالجو الثقافي في الأزهر ، وفي خارج الأزهر .

أساتذتي في الأزهر

كان من بين مدرسي القسم العالي بالأزهر ، عديد من الشخصيات
اللامعة في العلم والمنزلة .

الشيخ محمود شلتوت

كان منهم الإمام الأكبر المرحوم الشيخ « محمود شلتوت » ،
عالم ، مفكر ، قوى الحجة ، متحدث ، لبق .

الشيخ حامد محيسن

وكان منهم المرحوم الشيخ « حامد محيسن » . عالم ، مستقل
التفكير ، لا يعرف التقليد في رأى ، ولا يسوق الرأى دون برهان .

الشيخ سليمان نوار

وكان منهم المرحوم الشيخ « سليمان نوار » أديب ، طاهر القلب ،
له ذوق في البلاغة راق .

الدكتور محمد عبد الله دراز

وكان منهم المرحوم الدكتور « محمد عبد الله دراز » يمثل الاتزان المتزن ، والخلق الكريم ، ثقف نفسه ، كأحسن ما تكون الثقافة ، آراؤه موفقة ، يتدفق أسلوبه في البيان ، عذباً ، شهيّاً ، لا يمل .

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

ومنهم - أطال الله في عمره - الشيخ محمد عبد اللطيف دراز .
ثائر مناضل ، خطيب ممتاز ، لا يسأم من مساعدة الآخرين ، ولا يتوانى عن السعى في مصالح الضعفاء ، حديثه ممتع ، وفي أسلوبه عذوبة .

الشيخ الزنكلوني

وعلى قمة اللامعين من رجال الأزهر ، كان المرحوم الشيخ « الزنكلوني » . عالم من كبار العلماء ، فيه جرأة نادرة ، وله في الثورات سهم ، وله في المشاورات السياسية سهم كذلك أما في النضال العلمي فله أسهم مرموقة . وكان يعتبر نفسه أباً لكل من سمى به آماله ، وارتفع به طموحه عن مرتبة الإمعات : يأخذ بيده ، ويعاونه ، ويدفع عنه مكر الماكرين .

الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي

وكان في الآفاق العليا - التي نتطلع إليها في احترام وتقدير - الإمام

الأكبر المرحوم الشيخ « محمد مصطفى المراغى » ، عالم ، ذكى ، ذو شخصية جارية ، مهيب ، صاحب رأى فى العلم ، وصاحب رأى فى السياسة ، بليغ الأسلوب .

أما صوته فى الخطابة ، وفى الدرس ؛ فإنه نغمة موسيقية عذبة ولعل الإذاعة تنبه إلى ذلك فتعيد إذاعة ما عندها من خطبه ، وأحاديثه ، بين الحين والحين ؛ لينعم الناس بنعمة جميلة ، ويستفيدوا علماً غزيراً .

الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق

وكان فى هذه الآفاق العليا أيضاً المرحوم الإمام الأكبر الشيخ « مصطفى عبد الرازق » . عالم ، فيلسوف ، حيّ ، حلیم ، كريم بماله ووقته لطلبة العلم ، ولغيرهم . خرج جيلاً من النابهين فى الجامعة ، وأسهم فى الحركة العلمية بجهود عظيمة : ألف ، وحاضر ، وكتب المقالات ، ووجه تلاميذه إلى التحقيق ، والتأليف ، والترجمة ، وفتح مكتبته الغنية بشتى الكتب ، ونوادرها ، لكل طالب علم مجد أسبغ الله - على من لحق منهم بالرفيق الأعلى - شأبيب رحمته ومد فى عمر من بقى منهم على قيد الحياة .

وليس الأمر هنا أمر استقصاء ، وإنما أحب أن أقول : إن هؤلاء جميعاً كانوا يمتازون بالجد فى تحصيل العلم ، وما من شك فى أنهم لم يضيعوا وقتاً فى اللغو ، وإنما سهروا الليالى فى تحصيل العلم ، وكانت ثمرة ذلك أن أصبحوا من النابهين .

بهذا القدر المشترك ، وبصفات أخرى لكل منهم ، يتميزه عن غيره ، وتعلو به في مجالات الرفع مراتب ، تختلف وتتفاوت .
ولا أحب أن أترك هذا المجال ، قبل أن أتحدث ، عن رأى من آراء الشيخ « مصطفى عبد الرزاق » وعن توجيه من توجيهاته .
أما الرأى ، فهو ما تحدث به : من أن منطق المسلمين هو (أصول الفقه) .

وهذا الرأى إنما هو إلهام من توفيق الله تعالى .
إن المسلمين - حينما ترجموا الفلسفة اليونانية ، في عهد « المأمون » على الخصوص ، وبتوجيه منه وتشجيع - اندفعوا في سبيل تعلمها ، ودراستها ، ونشرها . وتخصص فيها من تخصص ، وألف وحبّد ، وأشاد . وراج للفلسفة اليونانية - في الوسط الإسلامى - جو من التأييد مستفيض .

والفلسفة اليونانية ، فلسفة وثنية ، وأعنى بذلك : أنها فلسفة لا تنبع عن الوحى ، فليس لها أساس من الدين ، وكل ما كان كذلك فهو وثنى

أرأيت إلى النبات يخرج من الأرض دون أن تكون هناك يد تتعهده ! ؟ إننا نطلق عليه أنه : « نبات شيطانى » كذلك الأمر فيما يتعلق بالآراء الروحية ، التى لا تنبت فى الجو الدينى ، فيتعهدها الوحى بالرعاية ، والهداية ، والتوجيه ؛ إنها « آراء شيطانية » ، أى آراء وثنية .

ولقد حاول مخترعوها أن يجدوا - فى غير الوحى - مقياساً يرجعون

إليه ؛ لتمييز حقها من باطلها ، فاخترع « أرسطو » المنطق .
 وأخفق المنطق الأرسطي إخفاقاً تاماً ، لم يفد - ولا قلامة ظفر -
 في بيان الحق والباطل ، ولم تستفد الإنسانية منه - ولا شروى نقير -
 أية فائدة .

ومع ذلك فقد فتن به قوم ، ودامت الفتنة - في جونا الإسلامى - إلى
 الآن .

وعلى الرغم مما كتبه الإمام « ابن تيمية » في « نقد المنطق » ، وفي
 « نقض المنطق » ، وفي « الرد على المنطقيين » .

وعلى الرغم من توفيق الله له توفيقاً كاملاً في ذلك ؛ فقد بقى المنطق
 فتنة للكثيرين .

وكان وما يزال يدرس في الأزهر - لا على أنه صورة من صور
 الضلال الفكرى - وإنما على أنه قاعدة من القواعد العلمية .

وجاء المرحوم الشيخ « مصطفى عبد الرازق » ونبه على أن منطق
 المسلمين إنما هو « أصول الفقه » ؛ إنه القواعد التى رسمت في الجو
 الإسلامى ؛ ليسير الرأى في ضوئها على ما يحب الله تعالى ورسوله صلى الله
 عليه وسلم .

ولقد وفق « الشيخ مصطفى عبد الرازق » في ذلك كل التوفيق ،
 واستفاض فيه في كتاب : « تمهيد لدراسة الفلسفة الإسلامية » وهو في
 سبيل زيادة البيان عن ذلك ، كتب عن الإمام « الشافعى » ؛ إذ أن
 الإمام الشافعى رضى الله عنه هو أول من ألف في « أصول الفقه » .
 لقد كتب في ذلك كتابه « الرسالة » وهى تتسم بالأسلوب الأدبى ،

الجزل : أسلوب الشافعي الأديب ، وتتسم بالعلم الغزير : علم الشافعي الفقيه .

وعن الشافعي وعن رسالته وعن علم أصول الفقه يقول المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه المعنون : « الإمام الشافعي » ما يلي :
إذا كان الشافعي هو أول من وجه الدراسات الفقهية إلى ناحية علمية فهو أيضاً أول من وضع مصنفات في العلوم الدينية الإسلامية على منهج علمي بتصنيفه في أصول الفقه . . .

قال الرازي : اتفق الناس على أن أول من صنف في هذا العلم - أي علم أصول الفقه - الشافعي ، وهو الذي رتب أبوابه ، وميز بعض أقسامه من بعض ، وشرح مراتبها في القوة والضعف .

وروى أن عبد الرحمن بن مهدي التمس من الشافعي وهو شاب أن يضع له كتاباً يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة ، والإجماع والقياس ، وبيان الناسخ والمنسوخ ، ومراتب العموم والخصوص ، فوضع الشافعي رضي الله عنه « الرسالة » وبعثها إليه ، فلما قرأها .
عبد الرحمن بن مهدي قال :

« ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل »

ثم قال الرازي : واعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة « أرسططاليس » إلى علم « المنطق » . . .

ثم قال :

« الناس كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه »
ويستدلون ويعترضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في

معرفة دلائل الشريعة ، وفي كيفية معارضتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعي علم « أصول الفقه » ، ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة أدلة الشرع . .

وقال الرازي :

واعلم أن الشافعي صنف كتاب « الرسالة » ببغداد ، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب « الرسالة » ، وفي كل واحد منهما علم كثير . ويقول بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هـ

في كتابه في أصول الفقه المسمى « بالبحر المحيط » فصل :

الشافعي أول من صنف في أصول الفقه ، صنف فيه كتاب الرسالة ، وكتاب أحكام القرآن ، واختلاف الحديث ، وإبطال الاستحسان وكتاب جماع العلم ، وكتاب القياس ، الذي ذكر فيه : تفصيل المعتزلة ورجوعه عن قبول شهادتهم . .

ثم تبعه المصنفون في علم الأصول ، قال أحمد بن حنبل : « لم نكن نعرف الخصوص والعموم حتى ورد الشافعي » . .

وقال الجويني في شرح الرسالة : لم يسبق الشافعي أحد في تصانيف « الأصول » ومعرفتها ، وقد حكى عن ابن عباس « تخصيص عموم » ، وعن بعضهم « القول بالمفهوم » ، ومن بعدهم لم يقل في الأصول شيئاً ، ولم يكن لهم فيه قدم ، فإننا رأينا كتب السلف من التابعين وتابعي التابعين وغيرهم فما رأيناهم صنفوا فيه . . (من نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس) . .

ويقول ابن خلدون في المقدمة :

« وكان أول من كتب فيه - أى فى علم أصول الفقه - الشافعى
رضى الله عنه ، أملى فيه رسالته المشهورة ، تكلم فيها فى : الأوامر
والنواهى ، والبيان ، والخبر والنسخ ، وحكم العلة المنصوصة من
القياس ، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه ، وحققوا تلك القواعد ، وأوسعوا
القول فيها ، وكتب المتكلمون أيضاً . .

وفى كتاب « طبقات الفقهاء » للقاضى شمس الدين العثمانى
الصفدى : « وابتكر الشافعى ما لم يسبق إليه . . من ذلك : أصول
الفقه ، فإنه أول من صنف أصول الفقه بلاخلاف ، ومن ذلك :
كتاب القسامة ، وكتاب الجزية ، وكتاب قتال أهل البغى » . (من
نسخة خطية بدار الكتب الأهلية بباريس) .

ويقول صاحب كتاب « كشف الظنون » ، وأول من صنف فيه
الإمام الشافعى . . ذكره الأسنوى فى التمهيد ، وحكى الإجماع فيه
والباحثون فى هذا الشأن من الغربيين يرون فى الشافعى : واضعاً
« لأصول الفقه » . . يقول « جولدزيهر » فى مقالته فى كلمة (فقه)
فى دائرة المعارف الإسلامية :

« أظهر مزايا محمد بن إدريس الشافعى أنه وضع نظام الاستنباط
الشرعى من أصول الفقه ، وحدد مجال كل أصل من هذه الأصول ،
وقد ابتدع فى « رسالته » نظاماً للقياس العقلى الذى ينبغى الرجوع إليه
فى التشريع ، من غير إخلال بما للكتاب والسنة من الشأن المقدم ،
ورتب الاستنباط من هذه الأصول ، ووضع القواعد لاستعمالها بعد ما
كان جزافاً . .

وقد لا يكون بعيداً عن غرض الشافعي في وضع أصول الفقه أن يقرب الثقة بين أهل الرأي وأهل الحديث ، وعمهد للوحدة التي دعا إليها الإسلام . أما التوجيه : فهو ما أرشد الشيخ إليه الدكتور « على سامي النشار » . لقد كان الدكتور « على سامي النشار » من تلامذة الشيخ « مصطفى عبد الرازق » ووجهه إلى نشر كتاب « الإمام السيوطي » ، « صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام » .

وهو كتاب ينقد المنطق الأرسطي ، بقلم كبار المسلمين ، وينقد الانغماس في الجدل في علم الكلام ، بأقلام كبار علماء المسلمين أيضاً . وإذا كان المرحوم « الشيخ مصطفى عبد الرازق » قد أفاض - في كتابه « التمهيد » . في الرد على النزعة التي تتجه إلى البحث في علم الكلام ؛ فإن توجيهه للدكتور « على سامي النشار » لنشر هذا الكتاب كان تأكيداً ، أو زيادة بيان لما سبق أن حاوله : من التنبيه على أن العناية بالجدل الكلامي ، وتدرسه - على هذه الصورة المستفيضة ، والتي لا نتيجة لها ، ليس من الأمور المحمودة .

مصطفى عبد الرازق وعلم الكلام

وما كتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق عن الجدل والممارسة في علم الكلام ما يلي :

« تقرير العقائد الدينية في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام » .
جاء الإسلام يقرر أن الدين الحق واحد ، هو وحى الله إلى جميع

أنبيائه ، وهو عبارة عن الأصول التي لا تتبدل بالنسخ ولا يختلف فيها الرسل ، وهي هدى أبداً .

أما الشرائع العملية فهي متفاوتة بين الأنبياء ، وهي هدى ما لم تنسخ ، فإذا نسخت لم تبقى هدى . .

قال الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ - ٤٤ م) في تفسير قوله تعالى :

« أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ . . . » (١)

« والمراد إبهداهم طريقهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين ، دون الشرائع فإنها مختلفة ، وهي هدى ما لم تنسخ ، فإذا نسخت لم تبقى هدى ، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبداً »

قال ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ م) :

« وقد أرسل الله جميع الرسل ، وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » (٢) .

وقال تعالى :

« وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ » (٣) .

(١) الأنعام : ٩٠ .

(٢) الأنبياء : ٢٥ .

(٣) الزخرف : ٤٥ .

وقال تعالى :

« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » .

وقال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » .

وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم : « أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا » ، فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى طاعتهم ، والإيمان بالرسول هو الأصل الثاني من أصلي الإسلام (١) .

وقد بعث محمد ، عليه الصلاة والسلام ، بدين وشريعة ، أما الدين فقد استوفاه الله كله في كتابه الكريم ووحيه ، ولم يكل الناس إلى عقولهم في شيء منه ، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر والاجتهاد تفصيلها .

وجاء في القرآن المجيد :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (٢) .

وكان نزول هذه الآية في يوم عرفة عام حج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حجة الوداع ، ولم يعيش النبي بعد نزول هذه الآية إلا إحدى

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٣٥ .

(٢) المائدة : ٣ .

وثمانين ليلة ، ولم يمض رسول الله حتى كمل الدين .

روى الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ - ٢٣ م) عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ - وهو الإسلام ، قال : أخبر الله نبيه ، صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله عز وجل فلا ينقصه أبداً ، وقد رضى به فلا يسخطه أبداً » .

وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم بدين الإسلام ، داعياً إلى الوحدة فى الدين ، وإلى التآلف ، ناهياً عن الفرقة ، كما فى آيات كثيرة من القرآن ، منها :

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ^(١) » .

وكان على القرآن أن يجادل مخالفيه من أرباب الأديان والملل فى العرب ، رداً للشبهات التى كانوا يثيرونها حول عقائد الدين الجديد ، على أنه كان لا يمد فى حبل الجدل حرصاً على الألفة . وكثيراً ما تختتم آيات الجدل بمثل قوله :

« وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ، اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ^(٢) » .

هذا الجدل فى العقائد عرض له القرآن للحاجة وعلى مقدارها ، من غير أن يشجع المسلمين على المضى فيه ، بل هو قد نفرهم منه ، فى مثل قوله :

(٢) الحج : ٦٨ - ٦٩ .

(١) الأنعام : ١٥٩ .

« وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يَنْبِئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

جاء في كتاب « مختصر جامع بيان العلم » :

« وعن العوّام بن حوشب عن إبراهيم التيميّ في قوله تعالى :
« فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ » . قال : الخصومات بالجدل
في الدين » .

وهذا يتفق مع قول كثير من المفسرين ، كالزمخشري ، والبيضاوي
المتوفى سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) .

كان لهذه المعاني الدينية التي قررها الإسلام منذ نشأته أثرها العظيم
في توجيه النظر العقلي عند المسلمين في عهدهم الأول ، فكرهوا البحث
والجدل في أمور الدين دون أمور الأحكام الفقهية .

وفي كتاب « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة الدينوري المتوفى
سنة ٢٧٦ هـ (٨٧٨ - ٧٩٩ م) بصدد الطعن على المختلفين في أصول الدين :
قال أبو محمد : لو كان اختلافهم في الفروع والسنن لاّتسع لهم
العذر عندنا ، وإن كان لا عذر لهم مع ما يدعون لأنفسهم ، كما اتسع
لأهل الفقه ووقعت لهم الأسوة بهم ، ولكن اختلافهم في التوحيد ،
وفي صفات الله تعالى ، وفي قدرته ، وفي نعيم أهل الجنة وعذاب أهل
النار ، وعذاب البرزخ ، وفي اللوح ، وفي غير ذلك من الأمور التي
لا يعلمها إلا نبي بوحي من الله تعالى (١) .

(١) تأويل مختلف الحديث .

نتائج ثلاث

أما النتيجة التي ينتهي إليها تفكير الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وهي
نتيجة ينتهي إليها كل مفكر يتحرى الصواب والحق فهي :

- ١ - منطق المسلمين هو أصول الفقه .
 - ٢ - المنطق الأرسطي لا فائدة فيه .
 - ٣ - الاستفاضة في الجدل الكلامي غير محمود .
- هذه الزوايا مما عُنِيَ بها المرحوم ، الشيخ « مصطفى عبد الرازق » .
وقد صاحبه التوفيق ، وهداه الله إلى الصراط المستقيم .
- كنت أحضر الدروس في الأزهر ، وكنت أحرص على حضور
المحاضرات التي تلى - هنا وهناك في القاهرة - خارج الأزهر .
وكان محط أنظارنا ، جمعية « الشبان المسلمين » ؛ فقد كان فيها
نشاط دائم ، وكان للقائمين عليها - آنذاك - عناية صادقة بهداية الشباب ،
وكان الدكتور « أحمد محمد الغمراوي » - عليه رحمة الله تعالى - من
الدائمين على إلقاء المحاضرات فيها ، كل أسبوع تقريباً . وكان الموضوع
الذي يتحدث فيه دائماً هو : « الإسلام والعلم » .
- كان أحياناً يلقي المحاضرة على الطريقة السائدة التقليدية ؛ ولكنه -
في أغلب الأحيان - كان يستمع إلى الأسئلة ويرد عليها ، وما كانت
المحاضرة تخرج عن أسئلة ، وإجابة على الأسئلة .
- ولا بد من كلمة في موضوع : « الإسلام والعلم » .

إن كلمة « العلم » حينما تذكر في هذا المجال ، إنما يقصد بها المفهوم الغربي لهذه الكلمة : والمفهوم الغربي لكلمة العلم هو « القواعد التي تقوم على أساس من الملاحظة ، والتجربة ، والاستقراء . » وما عدا ذلك فإنه - في المفهوم الغربي - لا يسمى علماً .

وعلى هذا الأساس فالفلسفة لا تسمى علماً .

وما يرجع إلى الذوق - كالفنون بمختلف ألوانها - لا يسمى علماً . وهناك علم ، وفلسفة ، وفن ، ودين .

فما بنى على الملاحظة ، والتجربة ، والاستقراء فهو علم .

وما بنى على العقل البحت فهو : فلسفة .

وما بنى على الذوق فهو : فن .

وما بنى على الوحي : فهو دين .

ومن المؤسف أن كبار المفكرين - في مصر - آثاروا موضوع :

العلاقة بين « العلم والدين » في مجلة « السياسة الأسبوعية » - وكانت

تظهر أيام أن كنا طلبة بالقسم العالي ، وكنا ننتظر صدورها بشغف

فخلطوا بين هذه المفاهيم ، ولهذا الخلط - الذي وقع منهم ؛ من

كبارهم - فإنهم لم يصلوا إلى نتيجة ترضى الحق .

وكان خلطهم واضحاً بين العلم والفلسفة .

وما من شك في أن الحديث عن العلم - بالمفهوم الذي ذكرناه

وعن الدين ، يختلف عن الحديث في موضوع العلاقة بين الدين والفلسفة .

واختلاف الدين ، وبعض الآراء الفلسفية اختلاف دائم ، ولا خير

فى ذلك ؛ فإن الخلاف فى الفلسفة نفسها : بين فىلسوف وآخر ، وبين عصر وعصر ، خلاف مستمر .

والفلسفة يهدم بعضها بعضاً ، وكل فىلسوف يهدم كل من عداه . وكل مدرسة فلسفية تخطئ جميع المدارس التى تخالفها . وهذا الاختلاف نشأ منذ أن نشأت الفلسفة .

ولم يصل الفلاسفة إلى مقياس يفضل فيما بينهم ، يفضل بين الحق والباطل ، بين الخطأ والصواب .

ليس فى الفلسفة يقين ؛ إن الآراء الفلسفية كلها - دون استثناء - ظنية . إنها ظنية باعتبارها فلسفة رأى باعتبارها اختراع بشرى - فى مسائل لا مجال لمقياس فيها ، لا مجال للفصل فيها .

إنها ظنية ، لا ترىم عن ظنيتها على مدى العصور ، وعلى مختلف البيئات .

بل إنه يمكن أن يقال - بيقين - إن الفلسفة لا رأى لها ؛ إنها لا رأى لها فى أية مسألة من المسائل الجزئية ، وهى لا رأى لها فى أى موضوع من الموضوعات الكلية .

والأمر بدهى ؛ فإنه ما دام كل رأى فلسفى يعارضه رأى آخر فلسفى ، ويعارض الرأيين ، رأى ثالث فلسفى وهكذا . . . فتكون النتيجة أنه لا رأى للفلسفة .

فإذا اختلفت الفلسفة والدين ، أو بتعبير أدق ، إذا اختلفت بعض الآراء الفلسفية والدين ، فهى المخطئة ، والدين هو المصيب .
هى المخطئة والرأى الفلسفى المعارض لها ، الموافق للدين هو الصواب .

إنه الصواب - لابعثاره رأياً فلسفياً - وإنما باعتباره متفقاً مع الرأى الدينى الصواب .

ولا قيمة مطلقاً - فى المجال الدينى - للاختلاف بين بعض الآراء الفلسفية ، والدين . وكل اختلاف من هذا القبيل ، لا يؤبه له ، ولا يقام له وزن .

والموضوع الحقيقى : إنما هو موضوع « الصلة بين الدين والعلم » هل بينهما تعارض ؟ .

إن هذا الموضوع يُثار كثيراً . فكيف نشأت الفكرة ؟ . إن نشأة هذا الموضوع معروفة ، محدودة ، كتب عنه الغربيون كثيراً ؛ لأنه نشأ فى ربوعهم . .

عند نشأة النهضة الأوربية كانت الكنيسة - فى أوربا - متحكمة ، مسيطرة . وقد أقامت محاكم التفتيش للتكيد بكل من يخرج عليها .

وكانت محاكم التفتيش قوية ، قاسية ، رهيبية ، تثير الرعب ، وتبث الفرع فى كل نفس . وذلك لما كانت تصبه من ألوان العذاب : على التهمة ، وعلى الشبهة ، وعلى الظن ، وعلى مجرد الشائعة ، وعلى الاتهام بطريق ورقة - من مجهول - تصل بالبريد ، بدون توقيع .

وكان العذاب - أحياناً - يتمثل فى الإلقاء فى الزيت المغلى . أو الربط فى ذيول الخيول المسرعة فى عدوها ، ليمزق المعذب . ويتناثر أشلاء ، فضلاً عن القتل بأنواعه المعروفة .

وكانت الكنيسة - وهذا فى غاية الغرابة - قد تبنت آراء « أرسطو » - لماذا ؟ . ليس هناك من سبب معقول . . . ! ! .

تبنيتها ، وحرمت نقدها ، فضلاً عن نقضها .
 وقامت النهضة على الملاحظة ، والتجربة ، وأخذ العلماء يرون
 في آراء « أرسطو » في الطبيعة - الخطأ بعد الخطأ » وكان الجزاء التعذيب ،
 والتنكيل .

ويسير العلم - قدماً - في طريقه ، وتسير الكنيسة - قدماً - في
 طريقها وجاء اليوم الذى صار فيه العلماء من الكثرة بحيث قهروا
 آراء « أرسطو » المخطئة .

وبدا للناس أن الدين - ويمثله رجال الكنيسة ، ورجال محاكم
 التفتيش - يعارض الدين الذى يمثله العلماء

لا تعارض بين الدين والعلم

ونشأت مشكلة « تعارض الدين والعلم » .
 نشأت نشأة مزيفة ، فإن التعارض إنما كان بين آراء « أرسطو »
 والعلم : كان بين آراء رجال الكنيسة ورجال العلم ، ولم يكن - في
 حقيقة الأمر - بين الدين والعلم .
 ولكن تيار الإلحاد المتتابع ، تابع الحملة على الدين ، متحدثاً
 عن وقائع حدثت ، لا عن اختلاف الموضوعات الثابتة .
 يتحدث الملاحدة عن تعذيب هذا ، والتنكيل بذاك ، وليس هذا
 موضوع القضية ! . وإنما موضوعها ، تعارض مبادئ الدين ، وما أثبتته العلماء
 من قواعد مبنية على التجربة . ولم يثبت الملاحدة ذلك فى يوم من الأيام .

على أن الملاحدة حينما يتحدثون عن ذلك ، يجانبهم التوفيق من جانب آخر ؛ وذلك ، أن موضوع « العلم » المادة : إنه القواعد التي بنيت على التجربة ، والملاحظة .

وموضوع الدين . العقائد ، والأخلاق ، والتشريع ، ونظام المجتمع ، والتقوى ، وصلاح الفرد ، وصلته بالله تعالى ، وصلته بأخيه الإنسان في المجتمع ، والرقى بالفرد ، وبالمجتمع ، إلى القرب من الله تعالى ، ورضائه . وكل ذلك عن طريق الوحي المعصوم ، الذي أرسل الله به رسلة هداية للإنسانية . . . فأين هذا من المادة ، ومن موازينها ، ومقاييسها ؟ على أن المشكلة كلها ، بعيدة - تماماً - عن الجو الإسلامي ؛ إنها قضية غربية بحتة ، قضية تتصل « بأرسطو » والكنيسة ، ومحاكم التفتيش ، وعلماء أوروبا .

والذين أثاروا المشكلة في الشرق ، جماعة من الببغاوات ، درسوا في أوروبا ، ولقنهم سادتهم من الملاحدة ، أن بين الدين والعلم تعارضاً ، فتحدثوا بذلك في الشرق - حديث الببغاوات - دون دراسة ، أو بحث ، أو فهم للموضوع فهماً حقيقياً .

ما كُتِبَ في « السياسة الأسبوعية » وهو كثير ، مستفيض ، كان أكثره من هذا القبيل ، - النقل الببغائي - من غير فهم ناتج عن بحث ودرس .

جمعية الشبان المسلمين

، فاستأنف القول : .
لا أتخلف عن محاضرات الدكتور « أحمد محمد الغمراوي »
شبان المسلمين » . وكان - رحمه الله تعالى . من أصدق الناس
مظمهم رأياً ، في موضوع « العلم » . وفي موضوع « الدين » . . .
أخيراً كتاب ، « الإسلام في عصر العلم » . وهو من أنفس
ى الله تعالى عنه ، وأرضاه .

جمعية الهداية الإسلامية

، أتردد - أيضاً - على جمعية « الهداية الإسلامية » . وكان
الإمام الأكبر ، الشيخ « محمد الخضر حسين » رئيساً لها .

الشيخ محمد الخضر حسين

يخ « محمد الخضر حسين » مؤمن صادق الإيمان ، مجاهد ،
وهو تونسي المنبت ، والنشأة . . . جاهد في صفوف الوطنيين ،
م عليه بالإعدام ، وجاء إلى مصر ، عالماً ، ثبتاً ، فقيهاً ، لغوياً ،
كاتباً ، من الرعيل الأول . . . وقد أرضى - بنزعة المعتدلة ،

وحجته القوية ، وثبته مما يقول جميع الطوائف ، وذلك أن كل رأى يقول به ، إنما يستند إلى دليل واضح مقبول .

ولقد أسهم في الحركة الفكرية الإسلامية ، بنصيب وافر ؛ فكتب في كل ما أثير في عصره الخصب في الفكر ، والبحث .

كتب في «الخلافة» ، وفي «الشعر الجاهلي» . وفي «حكمة الشريعة» . وفي صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان « فقد كان عالماً ، تفرغ للعلم ، لم يشغله عنه شاغل من شواغل الدنيا ، أو الجاه والسلطان .

وحينما تولى «مشيخة الأزهر» - لم يغيّر شيئاً من عاداته ، كان على استعداد كامل ودائم لأن يعيش على كسرة من الخبز ، وكوب من اللبن . : ولأنه لم يكن له في شهوات المنصب من حظ ، فإنه كان - دائماً - يحتفظ باستقالته في جيبه . ولقد كان يقول : « إن الأزهر أمانة في عنقي ، أسلمها - حين أسلمها - موفورة ، كاملة وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يديّ ، فلا أقل من ألا يحصل له نقض » .

ومات - رحمه الله تعالى - لم يخلف من حطام الدنيا شيئاً . . . مات ،
وقد قدّم لأخراه ، النصيب الأوفر ، من حياته ؛ بل كل حياته ، رضى .
الله عنه ، وأرضاه .

وقد جُمِعَ الكثير مما كُتِبَ ، وتمَّ طبعه في « لبنان » ، بعد وفاته .
وهو كثر نفيس ، جم النفع ، لمن يحصله .

محمد فريد وجدى

وقد تعرفت - فى أثناء الدراسة بالقسم العالى - بالأستاذ الكبير « محمد فريد وجدى » . وكان يستقبل زائريه ، كل يوم بعد صلاة المغرب - لمدة ساعة - يتحدث إليهم ، ويحيب على أسئلتهم ، ويدلى برأيه فيما يُثار - من موضوعات - فى الصحف اليومية .

وقد كان الأستاذ « فريد وجدى » معنياً - كل العناية - بالتصدي لتزعجات الإلحاد ، والمادية : يهاجمها ، ويرد عليها ، مستعيناً فى كل ذلك - بآراء كبار المفكرين الغربيين . وقد أَلَفَ فى هذا الباب ، كتابه النفيس : « على أطلال المذهب المادى » .

وهو كتاب ، تشعر - لأول وهلة - أنه وليد دراسة متبصرة ، متأنية ؛ فقد أجاد فيه ، كل الإجادة .

وقد كتب « فريد وجدى » - وحده - دائرة للمعارف ، وهو عمل ضخم ، شاق ، لا ينهض به ، إلا العصبية ، أولو القوة فى العلم والمال . . . وأَلَفَ كتباً أخرى ، كثيرة ، متعددة البحوث ، من أنفسها ، كتاب : « الإسلام دين عام خالده » .

أسبغ الله شآبيب رحمته على « فريد وجدى » ؛ فقد كان أمة وحده كان يعيش فى شبه عزلة ، ولكن قلمه كان يصول ويجول فى كثير من المعارك الفكرية وكان - لاتبجائه الإسلامى - يتعرض - كثيراً - لهجوم عنيف من الماديين والملحددين .

ولاتجاهه الإسلامى - أيضاً - كان عرضة للهجوم من حملة الأقلام من المسلمين ، أمثال المرحوم الشيخ « رشيد رضا » . فكثيراً ما كانت المعارك تقوم بينهما ؛ لاختلافهما فى فهم بعض المسائل الإسلامية .

روايات جورجى زيدان

وقد كتبت - فى أيامنا تلك - روايات ، تتناول التاريخ الإسلامى ، كتبها « جورجى زيدان » . وقد قرأت الكثير منها حين ظهورها . وهذه الروايات لم تكتب من أجل إحقاق الحق . ولم تكتب لتعبر عن التاريخ الصادق ، وإنما كتبت بقصد تشويه الصورة الإسلامية الجميلة ، وتزييف الخلق العربى ، الأصيل ، الفاضل . لم يكن « جورجى زيدان » مصرياً أصيلاً ، بل كان من هؤلاء النازحين ، الذين آوتهم مصر ، ورحبت بهم ، وأنزلتهم منزلة التكريم ، من أمثال أصحاب « المقتطف » . وأصحاب « الهلال » . ومن أمثال « شبلى شميل » . و « يعقوب صروف » . فلم يراعوا إلا ، ولا ذمة ، ولم يقدروا حرمة ولا كرامة ، وإنما غلبهم سوء الطبع ، وساقهم لؤم التزعة ، إلى الإساءة إلى الجوال الإسلامى ، بل وإلى الجوال المسيحى - اللذين أفسحاهم ، مكاناً رحيباً ، يسوده الأمن ، والاطمئنان - وتمثلت هذه الإساءة فى نشر « الإلحاد ، والمادية ، والشك » . . . كما عاشوا فى كنف الاستعمار يسرون فى ركابه ، ويمكنون له فى الأرض ، بالتشكيك ، ونشر المادية ، والإلحاد .

ومصر بلد مؤمن بطبيعته الطيبة ، وفطرته السليمة ، وكل من دعا فيه إلى المادية ، والإلحاد ، - إذا أمعنت النظر في أمره - فستجده واحداً من ثلاثة : إما نازحاً إلى مصر ، وإما عميلاً للاستعمار ، وإما عميلاً لأعداء الإسلام على اختلاف مشاربهم ، ومنابعهم

حصلت على « العالمية »

وكان خاتمة سني الدراسة العالية بالقاهرة امتحان « العالمية »
كان والدي رحمه الله تعالى يلازمي ، في الأيام التي سبقت الامتحان .
وكان يوم الامتحان « الشفوى » . وكان أصعب الامتحانات
كانت اللجنة تتكون من خمسة من كبار العلماء وكان للامتحان - في أيامنا تلك - رهبة ، وكان منه خوف ، وكان للشيوخ هبة . . .
وذهبت لأداء الامتحان

أما والدي فإنه قد أسرع إلى ضريح العارف بالله « الإمام أحمد الدرديري » واعتكف بمسجده - يقرأ من القرآن الكريم ما تيسر ، وبخاصة سورة « يس » : ويتضرع إلى الله تعالى أن يوفقني ، ويكتب لي النجاح

ونجحت والحمد لله .

كان والدي - عليه رحمة الله - يحب أن يراني مدرساً بالأزهر ، لقد كان ذلك يسعده ، كل السعادة

من الأزهر إلى فرنسا

ولكنه فوجئ برغبتي الملحة في السفر إلى « فرنسا » ، لإتمام دراستي في جامعاتها . إنه لم يكن يتوقع ذلك ، ولا يدور شيء منه في خلدته وأخذ يثني عن عزمي بشتى الوسائل ، ولكن محاولاته لم تفلح وأعلنت في عزم مصمم التمسك برأيي في السفر ، ولو لم يكن بيدي شيء من المال . وأخيراً رضى والدي بعد لأي ، ورافقني إلى الإسكندرية ليودعني وركبت الباخرة لأول مرة

الفصل الرابع

ففرنسا



ياله من شعور عميق بالسعادة ! أن يجد الإنسان نفسه بين السماء والماء ! .! هذا الجزء من ملكوت الله الواسع الذي لا ترى له حدوداً ، كأنه « اللانهاية » لقد كانت الأيام التي قضيتها في الباخرة فترة من التأمل ، عمّقت الإيمان في قلبي ، وأذكت الشعور الديني في روحي ووجداني . وفي كل كياني .

في مارسيليا

ونزلنا « مارسيليا » . ويبدو أن الوقت -الذي نزلنا فيه - كان وقت انصراف العمال للغذاء ، لقد رأيت السرعة في كل اتجاه ، ونشاط الحركة في كل ناحية ، ورأيت النساء والفتيات وكأنهن يقفزن في سيرهن من السرعة ، كما كنَّ يتحدثن في سرعة أيضاً ، وهن فرحات ، مستبشرات ، سعيدات ، يضحكن في سرور وبشاشة .

ولست أدري لماذا تواردت - على ذهني - صور من الشعر العربي ، تصوّر الجمال في النساء العربيات . . . وثب إلى ذاكرتي قول ذلك الشاعر الذي يعبر عن المثل الأعلى في جمال المرأة ، بقوله :

« مشى القطاة ، ونطقها إيماء »

إن المرأة - هنا - لا تمشي مشي القطة ، وليس نطقها - كما يقول الشاعر - إيماء . . . فأين إذن « ثوم الضحى » ؟
 إن كل شيء هنا يوحى بالنشاط ، والحركة والسرعة .
 والرجال في سرعة دائبة ، وحركة مستمرة ونشاط وحيوية دائمين .
 وهذا الذي رأيته « في مارسيليا » رأيته فيما بعد في كل مكان
 توجهت إليه .

وصلى الله على « سيدنا محمد رسول الله فإنه كان يسير ، والصحابة
 من خلفه كأنهم يعدون .

ورحم الله « عمر بن الخطاب » : كان إذا مشى أسرع .

وهل تنهض الأمم بالكسل والخمول ؟ .

إن النشاط والحركة من صفات المؤمنين ، فهما عنوان القوة :

(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .

ومن آثارنا المتداولة :

« في الحركة بركة » - « البركة في البكور » وغير هذا كثير .

وأرجو الله - مخلصاً - أن يكتب لأمتنا أن تنفض عنها غبار الكسل
 والخمول ، وأن يوجهها إلى أداء الأعمال في أوقاتها وألا تؤخر عمل
 اليوم إلى الغد .

ورأيت في مارسيليا أمراً آخر - نحن أشد ما نكون حاجة إلى الانتباه
 له ، وإلى الالتزام به ، لأنه من شعب الإيمان - ذلك هو النظافة :
 نظافة الشوارع ، ونظافة المحال ، ونظافة الناس جميعاً ذكوراً وإناثاً ،
 صغاراً وكباراً .

وتجتمع النظافة مع التنسيق والتناسق ، فيبدو الجو كله فتنة للناظرين .
 وديننا دين الجمال ، والنظافة ، والطهر : « إن الله جميل يحب
 الجمال » « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » . « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ
 كُلِّ مَسْجِدٍ » .

والوضوء ، والغسل وفرض طهارة الجسد ، والثوب ، والمكان للصلاة . .
 إن كل ذلك وكثيراً غيره ، يوجه المسلم في قوة واستمرار إلى النظافة ، بل
 وإلى التنسيق ، ولكننا - بكل أسف - في غفلة عن كل ذلك : شوارعنا ،
 أطفالنا في الريف وغيره ، المحال التجارية ، مكاتب الموظفين . . . إن
 مظاهر كل ذلك تسيء إلى الذوق ، وإلى الدين .

إن إمالة الأذى عن الطريق من الإيمان ، ولكننا لانتجه لإمالة
 الأذى عن الطريق ، بل على العكس نحن الذين نقذف بالأذى
 في الطريق .

« اللهم يسر لأمتنا التزام توجيهك » . . .

ولكن الأمر الهام الذي أحب أن يتنبه إليه الجميع ، ويفكروا فيه ،
 هو أننا - وكنا مجموعة ، قضى بعضنا سنوات في فرنسا من قبل - بمجرد
 أن نزلنا إلى مارسيليا ، وأخذنا نطوف هنا وهناك ننظر إلى واجهات المحال
 التجارية ، وإذا ببعضنا يصل - وبسرعة - إلى إقامة علاقات ببعض
 الفتيات . . . والواقع : أنه إذا لم يسافر الطالب إلى البلاد الأجنبية - وهو
 محصن بالخلق وبالإيمان - فإنه - من المؤكد - ينزل إلى الإثم . . . وقد
 بدا ذلك الأمر واضحاً ، حينما طال بي المقام في فرنسا :

امنعوا سفر الفتيات

إن الطالب يتزلق إلى الشرب ، وإلى الصلة الآثمة في مجال الجنس ، وإلى التخلي عن كل الفروض الدينية . والأخطر من ذلك ، سفر الفتيات إلى فرنسا : إن الفتاة تسافر - عادة - فيما بين العشرين ، والخامسة والعشرين من عمرها وهنا مكنم الخطورة ، بل الخطورة نفسها بالنسبة للفتاة في هذه السن . . . وما من شك في أن تقاليدنا ، وأخلاقنا ، وديننا ومحيطنا كله ينهار أمام غريزة الجنس في تلك السن . ولا ريب أن الفتاة سوف تقاوم - لأول مرة - رعاية لدينها ، وخلقها ، وشرفها . . . ولكن الجو الذي تعيش فيه سيدفعها - حتماً - إلى الصلة الجنسية : إنها تقاوم ، ما في ذلك شك ، ولكن إلى متى . . . ؟ . . . سيدفعها الأصدقاء إلى « الخيالة » الباعثة ! ثم إلى الشرب ! ثم ينتهي الأمر إلى السقوط
 إننى - هنا - لا أتحدث بالمنطق ، وإنما أتحدث عن واقع محسوس ، وما دام الأمر - كذلك - فإن كل نقاش فيه ينهات أمام الواقع .
 لقد شاهدت فتاة مسلمة من أسرة لها مكاتبتها الاجتماعية في مصر تسقط مع شاب مسيحي ، ويبدو أن أسرتها علمت فأرسلت إليها تستدعيها ، فتمردت الفتاة على أسرتها ، ولست أعلم المصير الذي انتهت إليه .
 إن في مصر كل ما تحتاج إليه الفتاة من علم ، أما التخصص المتخصص في بعض جوانب المعرفة ، فنحن في غنى عنه بالنسبة للفتيات ، ونحن - بحمد الله - وصلنا في جامعاتنا ومعاهدنا العليا إلى درجة كبيرة

في مختلف التخصصات .

واني هنا أهيب بوزارة التعليم العالي وبالأباء والأمهات ، وبكل مستمسك بالفضيلة ، وبكل داع لها ، أقول لكل هؤلاء إن إرسال الفتيات إلى أوروبا لا ضرورة حتمية تستدعيه ، وإن ضرره أكثر من نفعه ، بل يمكن أن يقال : إنه ضرر كله .
« ألاهل بلغت ، اللهم فاشهد » .

صليت الجمعة في باريس

وذهبت إلى باريس ، ومررت بمكتب البعثات ، ولكنني أخذت أتخبط في طريق - يميناً ، ويساراً ، وشرقاً وغرباً - وكان من الممكن أن أضيق بالحياة في باريس لأول عهدي بها ، وكان من الممكن أن آخذ تذكرة للعودة والبواخر كثيرة

وجاء يوم الجمعة وأخذت أذرع شوارع الحي اللاتيني وما يحيط به بحثاً عن مسجد باريس الشهير ، ودخلت المسجد وصليت الجمعة .

وما إن انتهت الصلاة ، حتى رأيت شخصاً تلوح على وجهه سمات الطيبة يتجه نحوي ، ثم يسألني :

هل أنت مصري ؟

نعم

هل تعرف محمود بك سالم ؟

لم يسعني الحظ بذلك .

هيا إذن لأعرفك به

نشاط إسلامي في باريس

وذهبت معه ، وقابلت السيد « محمود سالم » وأحسست عند لقائه بالارتياح إليه ، والضيق به ، في آن واحد : كانت نظراته كأنها انعكست انعكاساً تاماً في داخل نفسه ، واستقرت على أفكاره ، فهي ترى الأفكار وحدها دون نظر إلى المخاطبين ، لم يكن حفيماً في تحيته ، لكنه قال بدون مقدمات ، وهو يمد يده بطريقة آلية : موعدنا الليلة ، في المحطة الساعة الخامسة لنستقبل الأستاذ « خالد شلدريك » .

فأخذت أسائل نفسي : من هو « خالد شلدريك » ؟ ولم نستقبله ؟ وهل من الضروري أن أذهب لاستقباله ؟

تلك أسئلة دارت بخلدی ؟ ولم أجدها جواباً ، وكادت تعوقني عن الذهاب ، ولكن حب الاستطلاع ، والشعور بالغربة ، الذي يدفع إلى حب التعرف بالآخرين دفعاني إلى الذهاب في الموعد المحدد .

وجاء « خالد شلدريك » وكانت السيارات معدة ، فركبنا ، وكنا جمعاً غفيراً ، ولكني لم أكن أدري إلى أين نحن ذاهبون . ووصلنا إلى قصر فخم ، ونزل الركب ، واستقبلتنا سيدة أنيقة في صالون غاية في الفخامة والأبهة .

لقد كانت - كما عرفت فيما بعد - أميرة « سرواك » ، إحدى ولايات ماليزيا ، أميرة إنجليزية أسلمت ، وكتبت كتاباً عن سبب إسلامها ، نشرته على نطاق واسع ، وفي هذا المجتمع الذي اختلفت

الجنسيات فيه ، أدهشني حقاً : أن أرى كثيرين فيه ، أسلموا بعد أن ولدوا على ديانات أخرى ، وهم الآن مجتمعون لتحية « خالد شلدريك » الذي أسلم ، وكرس حياته لنشر الإسلام .

وبعد أن تناولنا الشاي خرجنا من جديد إلى قاعة محاضرات فسيحة الأرجاء ، ألفت فيها الأميرة محاضرة عن الإسلام ، وكان عدد المستمعين كثيراً يتحدثون ويتناقشون ، وأدهشني من جديد أن أرى كثرة الذين أسلموا حينما درسوا الإسلام . ولكن هذه الحادثة كانت السبب الذي أثار في نفسي التفكير في كتابة كتاب بعنوان « أوروبا والإسلام » وسنتحدث عنه فيما بعد إن شاء الله .

الدراسة في فرنسا

وانتظمت في سلك الدراسة ولم تكن سهلة : اللغة ! ! والكتابة بها ، النقلة المفاجئة من جو الأزهر ، إلى جو الدراسات الغربية كل ذلك كان يمثل عقبات لا بد من تذليلها ، وذللت ، وأصبحت الحياة رخاء ، ونجحت في أول مادة وكانت « علم النفس » . والدراسة في فرنسا . لا تجزئ المادة ، لتدرسها في سنوات عدة ، وإنما تدرس المادة بأكملها ، و« اليسانس » في كلية الآداب ، مجموعة من المواد ، لك الحرية في أن تجدد في تحصيلها ، حتى تقطع المرحلة الجامعية في ثلاث سنوات مثلاً ، ولك أن تكسل ، فتقطعها فيما شئت من سنوات ، قد تصل إلى عشر .

وهو نظام جميل ، فإن المسألة ليست سنوات ، تدرس في كل سنة مجموعة أجزاء من عدد من المواد ، وكذلك في السنة التي تليها ، كلا ! وإنما تدرس المادة كاملة ، وحدها ، أو مع مادة أخرى إذا شئت ، على أن تكون المادة الأخرى كاملة أيضاً .

حتى إذا انتهى الطالب من دراسة خمس مواد تحددها نوعية « الليسانس » التي يريدتها . . . نجح في الليسانس . ولا بد في الامتحان « لليسانس » من أداء امتحان في لغة أخرى ، مع اللغة الفرنسية .
والطالب - عادة - يختار لغته ، ومع ذلك فهو مضطر لإعادة النظر فيها ؛ لأنه سيؤدي الامتحان أمام متخصصين .

وليس للغات - من أجل الليسانس - منهج يدرس ، وإنما هناك برامج توزع ، ويتصرف الطالب في شأن تحصيلها بكل حريته حسبما يريد . لا يشترط أن يكون بين أوراق الطالب ، شهادة إتمام الدراسة الثانوية العامة ، أو ما يعادلها ، عند أول عهده بالدراسة ، ولا عند دخول الامتحانات . . . وإنما يطالب بها - فقط - عند دخول الامتحان الأخير الذي يحصل به على « الليسانس » .

وهذه أوضاع في غاية الحكمة ، لأنها تعبير صادق ، عن الوضع الذي يجب أن يكون عليه الجوالجامعي ، وياحبذا لو أخذت به كليات الآداب في جمهورية مصر العربية .

من الليسانس إلى الدكتوراه

بدأت الدراسة في « فرنسا » منذ سنة ألف وتسعمائة واثنين وثلاثين ، على نفقتي الخاصة ، ودام الأمر كذلك إلى سنة ألف وتسعمائة وثمان وثلاثين . . . حيث أُلحقت بالبعثة الأزهرية . وكنت قد فرغت من « الليسانس » تقريباً . وبدأت أفكر في رسالة « الدكتوراه » .

فكرت في موضوع يتصل « بفن الجمال » ، ثم عرضته على المختصين ، فرفض ، ففكرت في موضوع يتصل « بمناهج البحث » وعرضته فرفض أيضاً . . . وأشهد أن أسباب الرفض ، كانت مقنعة لي تماماً .

دكتوراه في « التصوف الإسلامي »

وأخيراً اتصلت بالأستاذ « مسينيون » ، وتحدثنا طويلاً في هذا الموضوع ، وانتهى بنا الأمر إلى الاتفاق على أن أكتب عن « التصوف الإسلامي » من خلال دراسة « الحارث بن أسد المحاسبي » .

وكان هذا أول اتصال منظم ، وجاد بالتصوف الإسلامي ، بالنسبة لي .

وكانت كتب « المحاسبي » المطبوعة حينذاك نادرة . وطلبت المخطوطات التي بمكتبة الأزهر والمخطوطات التي بدار الكتب المصرية ،

وقد أعارني الأستاذ « مسينيون » كل ما عنده من مخطوطات « للمحاسبي » وكانت كثيرة وبدأت العمل . . ولكن الحرب العالمية الثانية قد اشتعل أوارها في سنة ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين ، وبقيام الحرب اضطرب كل شيء بالنسبة لي .

فالأستاذ « مسينيون » قد استدعى للجيش ، وارتدى الملابس العسكرية . ، وأصبحت مقابلته متعذرة ، لا تيسر إلا بمكتبه ، في وزارة الحربية ، أو الخارجية ، لست أذكر الآن أيهما على وجه التحديد ، ولم يكن ذلك سهلاً ، ناقشت الرسالة بعد أن انتهت من إعدادها ، وقدر الممتحنون لها درجة الشرف الأولى « الامتياز » . وأحب أن أشرك القراء في شيء منها مما أعتر به .

ومن مقدمتها ننقل ما يلي :

١ - يتسم التاريخ - سياسياً كان أو فكرياً - بفترات تبدو فيها الحيوية الجارفة ، وهذه الحيوية تتركز في شخص أو أشخاص نابغين ، يلقون بأنفسهم في مجرى الحياة الهادئ الوديع ، فتضطرب الحياة وتموج ، ويعلو موجهها وينخفض ، وتصطرع القوتان - قوة الشعب الذي يتبع التقاليد ، وقوة المصلحين النابغين فترة تطول أو تقصر ، ثم تنحسر الأمواج ، وتهبط الأمور ، فإذا بالحياة تأخذ لوناً جديداً ، وإذا بالقيم قد تغيرت ، في قليل أو في كثير .

ومهما يكن من شيء ، فإن عظماء الرجال - على أي وضع قضوا نحبهم - ، لا يتركون هذا العالم إلا وقد تركوا أثراً لا ينمحي أبد الدهر .

وقد ينشأ النابغة ، فيجد نفسه في ميدان المعركة ، مختاراً أو مضطراً ،
وتشرع نحوه الأسنة ، وتتجه إليه السيوف المهنددة ، فيدافع ، ويهاجم ،
ويغلب ، أو يغلب ، ويترك ، على كل حال ، أثراً .

ونشأ المحاسبي ، وفي العالم الإسلامي قوتان هائلتان تصطرعان :

١ - أهل السنة ، ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل .

٢ - المعتزلة ، ولهم ممثلوهم في البصرة والكوفة وبغداد .

وهذا الصراع بين المعتزلة وأهل السنة : صراع طبيعي ، لا يخلو
من مثله دين من الأديان :

إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين .

إنه النزاع الأبدي بين الذين يقولون : إن الدين نص تفسره أسباب
النزول واللغة والرواية ، والذين يقولون إن الدين نص يفسره العقل
ويوضحه .

ويظن بعض الناس - للوهلة الأولى - أنه لا يمكن أن يكون هناك
طرف ثالث في هذه الخصومة : فالإنسان إما نصي ، وإما عقلي ، ولا يحتمل
الأمر حلاً ثالثاً .

ونشأ المحاسبي ليعلن هذا الحل الثالث .

لقد هاجم المعتزلة هجوماً عنيفاً ، وألف كتاباً خاصاً كان من
بين أهدافه الرد عليهم ، سماه « فهم القرآن » .

لقد رأى في نزعتهم العقلية طغياناً لا يتناسب ومقام العبودية ،
ورأى أن نزعتهم تحكّم العقل في القرآن ، وتجعله يسيطر على النص .
ولو كان الأمر كذلك لكان القائد في الحقيقة وواقع الأمر : هو العقل

لا الكتب المقدسة .

وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة ، تتمثل في دفاعهم المجيد عنه ، ورد هجمات أعدائه ، وتأييده منطقياً وعقلياً ، فإنه مما لا شك فيه : أن العقل لو ترك شأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم : « ما وراء الطبيعة » فيفسر لنا غامضه ، ويوضح لنا من أمره ما انبهم .

لا بد إذن أن يخضع العقل للنص .

ومذهب المعتزلة إذن ، لا يسير في عالم : « ما وراء الطبيعة » على النهج الصواب .

هناك إذن : إفراط وتفريط .

والعبودية الحققة - فيما يرى المحاسبي - هي المنهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحققة ، ودخل المحاسبي المعركة ، وسلاحه فيها : عبودية حققة ، وإخلاص لا حد له ، وتقوى تغمر كل الجوارح ، ومن قبل ذلك ومن بعده : دراسة مستفيضة للدين : وسائله ، وغاياته ، جزئياته ، وکلياته ، التقوى والعلم إذن كانا سلاحه في المعركة ،

واحتدم النزاع ، وكان لابد من أن يحتدم ، وثار الفقهاء على المحاسبي ، وكان لابد أن يثوروا ، فقد كان المحاسبي ينهج في درسه منهجاً آخر غير الطريق العادي التقليدي :

كان يتحدث في الإخلاص ، في الورع ، وفي الزهد ، وفي الخشوع الخالص لله .

وكان يتحدث في هيبة الله ، وجلاله وعظمته .

وكان يتحدث في محبة الله ، والأنس به ، والقرب منه .
 وكان حديثه عذبا ، طلقا ، ساميا ، فكانت تخشع له الأفئدة ،
 وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس ما لله من فضل ،
 فترق قلوبهم ، ويتعاهدون على الاستقامة .

وملأت سمعة المحاسبي أرجاء بغداد ، ثم عبرتها إلى جميع أرجاء
 المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، وكلما أخذت شهرته في الازدياد ،
 كثر خصومه وشانثوه !!!

ولكنه كان يسير في طريقه ثابت الخطى ، لا يعنيه سوى أن يكون
 الله راضيا عنه !!!

وتكشفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير ، ووصل إلى المعرفة
 الحققة ، فأعلن طريقها ،
 وطريقها ليس حسا يخطئ ، وليس عقلا يضل ، وإنما هو : بصيرة
 وضاعة ، وروح صافية .

واستمرت الخصومة بين النصيين ، ويمثلهم الإمام « أحمد » ،
 والبصيريين ويمثلهم الإمام المحاسبي ، والعقليين ويمثلهم المعتزلة .

ومن غريب الأمر : أن أية قوة من هذه القوى لم تخر صريعة ، بل
 بقيت قوية ، واستمرت في كفاح ونضال ، حتى يومنا هذا ،
 تسلسلت فكرة المحاسبي ، وتمثلت خير تمثل في الإمام « الغزالي » ،
 ثم في بقية الصوفية من بعده حتى كان العصر الحاضر ، فكان يمثلها
 في أسلوب جديد ، وتعبير صادق ، المرحوم : الشيخ « عبد الواحد يحيى »

الذى توفى فى بداية النصف الثانى من القرن الحاضر .

وتسلسلت فكرة الإمام « أحمد » ، فتمثلت فى الإمام : « ابن تيمية »
الذى وضع لها المنطق ، وأرسى لها القواعد والأصول ، واستمرت قوية
إلى عهدنا الحاضر ، وكان يمثلها المرحوم : « الشيخ رشيد رضا » تمثيلاً قوياً .
وتسلسلت فكرة المعتزلة ، راكدة حيناً ، وقوية حيناً آخر ، حتى
كان « جمال الدين الأفغانى » ، قد دفعها دفعاً قوياً إلى عالم الظهور .
وكان « الشيخ محمد عبده » من أهم العوامل فى نشرها ، ملطفة
خفيفة تكاد تُخفى ، أو تكاد تلبس ثوب السلفية .

وحمل اللواء من بعده ، المرحوم : « الشيخ المراغى » والمرحوم :
« الشيخ مصطفى عبد الرازق » وفكرة « الإمام محمد عبده » تتمثل
فيها حقيقة ، لا فى الشيخ « رشيد رضا » ، كما يظن كثير من الناس .
لاتزال تلك القوى الثلاثة تتصارع حتى عهدنا هذا ، ونعتقد أنها
ستستمر ، ذلك : أنها تمثل نزعات فطرية فى بنى الإنسان : فبعضهم
واقعى يتجه إلى النص ، ولا يريد ، أو لا يمكنه ، أن يسير إلى أبعد
منه ، وبعضهم : يحتفظ بشخصيته ، قوية جارفة لا تلين ، فهو عقلى
أو اعتزالى . وبعضهم : رقيق الشعور ، مرهف الحس ، ملائكى النزعة
فهو بصيرى أو صوفى .

نزعات ثلاثة ، تقوم على فطر مختلفة ، وهذه الفطر تستمر فى
بنى البشر ، ما دام على وجه الأرض أفراد من النوع الإنسانى ، ومن
هنا كان خطأ هؤلاء الذين يحاربون التصوف ، أو الاعتزال ، أو النصيين ،
على أمل أن يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات .

٢ - روى صاحب « طبقات الصوفية » بسنده ، عن « الحارث ابن أسد المحاسبي » بسنده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
 « أثقل ما يوضع في الميزان : حسن الخلق » .
 ولقد وضع المحاسبي هدفاً له في الحياة يسعى إلى تحقيقه ، هو :
 « حسن الخلق » لقد وضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في نفسه ، ووضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في مجتمعه .
 أما فيما يتعلق بنفسه ، فإنه أخذها بتحقيق صفة العبودية ، على أساس من القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، لا يحيد عنه .
 وإنه يُعبر عن شعاره في ذلك ، فيقول هذه الكلمة التي تصفه حالاً ومقالاً :

« إذا أنت لم تسمع نداء الله ، فكيف تجيب داعي الله ؟
 ولم يجهل المحاسبي قدر الله ، فلم يستغن بشيء عنه سبحانه .
 وأما فيما يتعلق بالمجتمع ، فإن المحاسبي أخذ في نشر حسن الخلق فيه بسمته ، واتباعه للسنة ، وبدرسه التي كانت تفعل الأعاجيب في القلوب ، وبكتبه التي تبين حسن الخلق : وسائل ، وغايات ، والتي لا يزال لها إلى الآن أريج عطري ، يتجدد على مر الزمن ، فيهدي الحيارى ، وينير الطريق أمام السالكين .

٣ - ولكن من هو « المحاسبي » ؟ وما لنا نتعجل ، فتحدث عن المحاسبي في القمة قبل أن نبدأ معه من البداية ؟

إنه « الحارث بن أسد » ، وكنيته : « أبو عبد الله » ،
 وقد نشأ بالبصرة ، واستمر بها سنوات لا يتأتى لنا تحديدها في يقين

جازم ، ثم ذهب إلى بغداد ، ويبدو أنه ذهب إليها في سن مبكرة ،
وأستقر به المقام فيها .

متى ولد ؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده ، إذ أن الكتب القديمة التي
تحدثت عنه ، لم تذكر ذلك ، بيد أن الملابسات ترشد إلى أنه ولد - على
التقريب - في العقد السابع من القرن الثاني الهجري .

أما وفاته : فإن الكتب التي أرخت له تحدد سنة ٢٤٣ هـ
ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة .

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئاً ، وقد يمكننا أن نقول :
« استتاجاً » إنه قضى طفولته في شيء من اليسر والرخاء ، ذلك أن والده
حينما توفي ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم .

ويروى المؤرخون أن المحاسبي حينما توفي والده ، لم يأخذ من هذه
الثروة شيئاً تورعاً ، ذلك أن والده كان يقول بالقدر ، أى أنه كان
قدرياً ، يدين بمذهب المعتزلة ويقول المؤرخون لحياة المحاسبي : إنه لم
يستسغ أن يشترك في الميراث ، توسعاً في تطبيق القاعدة الإسلامية التي
تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين .

ولكن « المحاسبي » - فيما يبدو - امتنع عن ذلك لمجرد الورع ،
والزهد فيما تجره الثروة ، وتستتبعه من تفكير فيها ، وتديرها ، وتنمية وحفظ .
هذه الحادثة ترشد إلى أمور :

الأمر الأول هو : أن أسرة « المحاسبي » كانت أسرة ميسورة .

الأمر الثاني : هو أن والد « المحاسبي » كان من الذين اشتركوا

فى الثقافة الدينية والجدل الكلامى ، وأسهم فى ذلك بنصيب ، وحدد المعسكر الذى يقف جندياً فى جيشه .

وما من ريب فى أن العامة حينئذ لم يكونوا فى صف المعتزلة ، وما كان الذى يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختبار ، وأن الطريق التقليدى الذى يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة .

والأمر الثالث الذى ترشد إليه الحادثة : هو ورع المحاسبى الذى حمّله على أن يزهد فى الميراث مع حاجته إليه : تورعاً وتقوى .

ونبأ آخر نتبين منه شيئاً عن شخصية المحاسبى يقول الجنيد : كنت كثيراً أقول « للحارث » : عزلتى أنسى ، فيقول : كم تقول عزلتى أنسى ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ، ما وجدت بهم أنساً ، ولو أن نصف الخلق الآخر ، نأى عنى ما استوحشت بعدهم .

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبى ، والواقع أن الظروف والأحوال الثقافية التى أحاطت « بالمحاسبى » ، وموقف « المحاسبى » منها ، وحديث تلاميذه عنه - وإن كان نادراً - كل ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية .

وما يستأنس به تأييداً للقصة السابقة ، وإشارة إلى ما « للمحاسبى » من شخصية إيجابية قوية ، وبياناً عابراً عن بعض أساليبه فى تأليف كتبه ، ما رواه الجنيد أيضاً بقوله :

كان « الحارث المحاسبى » يحىء إلى منزلنا ، ليقول : اخرج معى نصحر (أى نذهب إلى الصحراء) فأقول له :

تخرجني عن عزلتي وأمني على نفسي ، إلى الطرقات والآفات
ورؤية الشهوات ؟ فيقول :

اخرج معي ، ولا خوف عليك ، فأخرج معه ، فكأن الطريق فارغاً
من كل شيء ، لا نرى شيئاً نكرهه ، فإذا حصلت معه في المكان الذي
يجلس فيه قال لي :

سلني :

فأقول له : ما عندي سؤال أسأله .

فيقول : سلني عما يقع في نفسك .

فتتال على الأسئلة ، أقاسأله عنها ، فيجيبني عليها للوقت .

ثم يمضي إلى منزله فيعملها كتاباً .

ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبي لم يكن يخشى : « الطرقات
والآفات » ورؤية الشهوات ، وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن
على النفس وعدم تشتيت للفكر ، كلا ، إنه يجابه الحياة ، محاولاً السير
بها إلى ما يراه حقاً وإصلاحاً .

أما فيما يتعلق بطريقته في التأليف : فإنه يعمل أحياناً على تلبية ما
يرغب المتحدثون في الإجابة عنه ، وهي طريقة حية : إنها استجابة لما
يحب المجتمع أن يرى الرأي الصريح فيه ، إنها تتصل بالحياة الواقعية .

ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق ، فإن بعضها كان إسهاماً في
الحركة المقاومة لحركة الاعتزال ، وكان بعضها حلقات في التخطيط
الذي رسمه « المحاسبي » للإصلاح الأخلاقي في المجتمع .

٤ - على أننا قد تعجلنا الحوادث مرة أخرى ، فتحدثنا عن « المحاسبي »
 في القمة ، ولم نتدرج معه تدرجاً طبيعياً .
 ولنعد إلى « المحاسبي » أول مقدمه بغداد : كان ذلك فيما يبدو في
 سن مبكرة نسبياً ، وكانت بغداد حينئذ بموج بمختلف التيارات الفكرية :
 ثقافة يونانية وافدة ، تريد أن تأخذ حق الإقامة ، سيدة متغلبة .
 وثقافة فارسية يحاول نشرها الفرس ، بما لهم من تأثير ونفوذ ، وبما لهم
 من مال وثراء ، وبما لديهم من ترف فكري ، وبما في نفوسهم من كبت
 لزوال ملكهم ، يحاول أن يتنفس - شاعراً أو غير شاعر - في صورة
 ثقافة تنافس الثقافة الإسلامية البحتة .
 وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى ، تريد أن تجد حلاً للتعارض
 والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء الثقافية .
 وثقافة إسلامية بحتة ، تجاهد في أن تفوز بقيادة المجتمع إلى الهداية
 الربانية والرشاد الإلهي ،
 وجاء « المحاسبي » بغداد متعلماً ، ومتثقفاً ، أو مستزيداً من العلم
 والثقافة : يبتغي السير على السنن المستقيم .
 وأخذ في الدرس في جد واجتهاد : فتشعبت به الطرق ، وتجاذبت
 الثقافات المختلفة ، تحاول كل منها ، أن تستأثر به وحدها ، ولكل منها
 مغرياتها ، ولكل منها منطقها .
 ووقف « المحاسبي » مستوعباً ، متأملاً ، متروياً .
 هل طال به الوقوف ؟
 متى خرج من تأمله ؟

متى استقر به الاتجاه ؟

ذلك مالا نعلمه إذا نظرنا إلى الزمن .

بيد أن « المحاسبي » ، وإن لم يعن بالتأريخ لحياته ، تأريخاً زمنياً ، فإنه ترك لنا أثراً نفسياً ، أبان فيه عن بعض أحوال معاصريه ، وتحدث فيه عن حيرته الفكرية ، وعن أسبابها ، وعن كيفية خروجه منها . وهذا الأثر نعتبره ، أساساً لكتاب : « المنقذ من الضلال » ، راسماً للإمام « الغزالي » تخطيطه ، موجهاً له إلى كتابته ، بل وراسماً له الطريق في حياته الروحية ،

ولعل التشابه بين هذا النص الذي نثبته الآن ، وكتاب : « المنقذ من الضلال » يجعل بعض الناس يستنتج أن التشابه قوى بين « المحاسبي » ، « والغزالي » في حياتهما ، ولنا في ذلك رأى سنذكره فيما بعد إن شاء الله . ولأهمية هذا النص بالنسبة « للمحاسبي » ولعصره ، وبالنسبة لصلته بكتاب المنقذ من الضلال ، صلة وثيقة نثبته بأكمله ، وإن كان فيه بعض الطول ، وقد كتبه المحاسبي مقدمة لكتابه : « الوصايا » الذي طبع أخيراً بالقاهرة ، يقول « المحاسبي » - في مفتتح كتابه الوصايا - بعد مقدمة موجزة :

وأما بعد : فقد انتهى إلينا : أن هذه الأمة تفرق على بضع وسبعين فرقة ، منها : فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرهما .

فلم أزل ، برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة ، وألتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد ، وأطلب من العلم والعمل ، وأستدل على طريق الآخرة ، بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل ،

بتأويل الفقهاء ، وتدبرت أحوال الأمة ، ونظرت في مذاهبها ، وأقاويلها ،
 فعقلت من ذلك ما قدر لي . ورأيت اختلافهم بجرأ عميقاً ، قد غرق فيه
 ناس كثير ، وسلم منه عصابة قليلة ، ورأيت كل صنف منهم يزعم أن
 النجاة فيمن تبعهم ، وأن الهلك من خالفهم ، ثم رأيت الناس أصنافاً :
 فمنهم العالم بأمر الآخرة : لقاءه عسير ، ووجوده عزيز .
 ومنهم الجاهل : فالبعد عنه غنيمة ، ومنهم المتشبه بالعلماء : مشغوف
 بدنياء ، مؤثر لها .

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتزم بعلمه ، التعظيم
 والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا .
 ومنهم متشبه بالنسك ، متجرباً بالخير ، لا غناء عنده ، ولا بقاء
 لعلمه ، ولا معتمد على رأيه .

ومنهم حامل علم ، لا يعلم تأويل ما حمل .
 ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء ، مفقود الورع والتقوى .
 ومنهم متوادون : على الهوى يتفقون ، وللدنيا يتبادلون ، ورياستها يطلبون .
 ومنهم شياطين الإنس : عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ،
 وإلى جمعها يهرعون ، وفي الاستكثار منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء ،
 وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف ، فتفقدت
 في الأصناف نفسي ، وضقت بذلك ذرعاً .

فقصدت إلى هدى المهتدين ، بطلب السداد والهدى ، واسترشدت
 العلم ، وأعملت الفكر ، وأطلت النظر ، فتيين لي في كتاب الله تعالى ،
 وستة نبيه ، وإجماع الأمة أن اتباع الهوى يعمى عن الرشد ، ويضل

عن الحق ، ويطيل المكث في العمی !!!
فبدأت إسقاط الهوى عن قلبي ، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتاداً
لطلب الفرقة الناجية ، حذراً من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ،
متحرزاً من الاقتحام قبل البيان ، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى .
ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة :
في التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه والورع في حلاله وحرامه ، وجميع
حدوده ، والإخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسي برسوله صلى الله عليه وسلم
طلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار ، فرأيت اجتماعاً
واختلافاً ، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن :
عند العلماء بالله وأمره ، وأن الفقهاء عن الله ، العاملين برضوانه ،
الورعين عن محارمه ، المتأسين برسوله صلى الله عليه وسلم ، المؤثرين
الآخرة على الدنيا ، أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين .
فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم والموصوفين ،
أقفو آثارهم ، وأقتبس من علمهم فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت
علمهم مندرساً ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« بدأ الاسلام غريباً ، وسيعود غريباً ، كما بدأ فطوبى للغرباء » وهم :
المنفردون بدينهم .

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأنقياء ، وخشيت ابتغى الموت أن
يفاجئنى على اضطراب من عمرى لاختلاف الأمة ، فانكشيت في
طلب عالم ، لم أجد لى من معرفته بدءاً ، لم أقصر في الاحتياط ولم أن
في النصيح .

فقيّض لي الرءوف بعباده ، قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وإيثار الآخرة على الدنيا، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، ووجدتهم مجتمعين على نصيح الأمة ، لا يرجون أحداً في معصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمته .

يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحبون الله تعالى إلى العباد ، بذكرهم أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى .

علماء بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسنته ، فقهاء في دينه ، علماء بما يحب ويكره ورعين عن البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء ، مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين في مطاعهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتريين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين في الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بشأنهم ، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ؛ لكل امرئ منهم شأن يغنيه . علماء بأمر الآخرة ، وأهاويل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب ، ذلك أورثهم الحزن الدائم ، وألهم المضنى ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات ، وحددوا للورع حدوداً ، ضاق لها صدرى ، وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع بحر لا ينجو من الغرق فيه شبيهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى ، فتبين لي فضلهم ، واتضح لي

نصحهم وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة والمتأسون بالمرسلين ،
والمصاييح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشدتهم فأصبحت راغباً في
مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلاً لآدابهم ، محباً لطاعتهم لا أعدل
بهم شيئاً ، ولا أؤثر عليهم أحداً .

ففتح الله لي برهانه ، وأنار لي فضله ، ورجوت النجاة لمن أقربه
أو أنتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن
خالفه ، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً على .

فاعتقدته في سريرتي ، وانطويت عليه بضميري ، وجعلته أساس
ديني ، وبنيت عليه أعمالي ، وتقلبت فيه بأحوالي .

وسألت الله عز وجل أن يوزعني شكر ما أنعم به علي ، وأن يقويني
على القيام بحدود ما عرفني به ، مع معرفتي بتقصيري في ذلك ، وأني
لا أدرك شكره أبداً .

ووجد « المحاسبي » نفسه حينئذ في معسكر أهل المنة على وجه العموم ،
وفي تيار الصوفية منهم ، على وجه الخصوص .

ولم يكن « المحاسبي » ، ذا طبيعة سلبية ، فكان لابد من أن يدخل
المعركة ، ودخل المعركة في قوة قوية ، مسلحاً بالعلم والتقوى .
ومن أجل ذلك : كان ذا أثر مزدوج .

لقد أثر باعتباره قدوة وأسوة .

وأثر باعتباره عالماً باحثاً ؛

أما كتبه : فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتي مصنف ،

حسباً زوى السبكي في « طبقات الشافعية » ، والمناوى في : « الكواكب الدرية » .

وهذه الكتب - في أغلبها الأعم - إنما هي في هداية النفوس ، وترقيق القلوب ، والسير بالأرواح إلى عالم الفلاح : إنها في أغلبها في علم التصوف والسلوك .

يقول « التميمي » - كما جاء في الكواكب الدرية - عن « المحاسبي » .

وهو إمام المسلمين في الفقه ، والتصوف ، والحديث والكلام .
ولقد كتب « المحاسبي » في هذه العلوم جميعها ، بيد أن مسحته الظاهرة ، ونزعتة الواضحة والكثرة الكثيرة من كتبه ، إنما كانت في التصوف والكلام .

أما كتبه في الكلام فقد بقي منها أهم كتبه في هذا الموضوع ، وهو كتاب :

« فهم القرآن » حققه ونشره حديثاً الدكتور « حسين القوتلى » ببلبنان ، ومنهجه في الكتاب ، يفهم من عنوانه ، إنه كان يرجع إلى القرآن في الرد ويتخذ منه مرشداً وهادياً ، ولعل السبب في إهمال كتبه الكلامية وفقدانها : هو حملة الإمام « أحمد بن حنبل » عليها .
يقول « الخطيب البغدادي » ، في كتابه : « تاريخ بغداد » جزء ٨ ص ١١٤ : ، وكان أحمد بن حنبل ، يكره « للحارث » نظره في الكلام ، وتصنيفه الكتب فيه ، ويصد الناس عنه « ويذكر هذه المسألة الإمام « الغزالي » في كتابه : « المنقذ من الضلال » ويفصل الرأي

فيها ، ويحسم المسألة بحل موفق فيقول :
لقد أنكر « أحمد بن حنبل » ، على « الحارث المحاسبي » -
رحمهما الله - تصنيفه في الرد على المعتزلة .

فقال الحارث : « الرد على البدعة فرض » .
فقال أحمد : نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ، ثم أجبت عنها ،
فيم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ،
أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟ يقول الإمام الغزالي :
وما ذكره « أحمد » : حق ، ولكن في شبهة لم تنتشر ، ولم تشتهر ،
فأما إذا انتشرت فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا
بعد الحكاية اهـ .

ولقد أصاب الإمام التوفيق في رأيه .
وما من شك في أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون جاهدين على نشر
بدعتهم وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة .
ومهما يكن من شيء ، فقد كان الإمامان : « أحمد والمحاسبي »
متعاصرين ، وحدث بينهما اختلاف في الرأي ، يتعلق بالكتابة في
المسائل الكلامية ، وحمل الإمام « أحمد » على كتب الإمام « المحاسبي »
في علم الكلام ، فقلّ تداول الناس لها - فيما يبدو - واختفت شيئاً
فشيئاً ، ولعل بعضها لا يزال موجوداً ، ولعل من المحتمل أن يكشف
المستقبل عنها كما حدث ذلك بالنسبة لكتاب : « فهم القرآن » على أن
رأى « المحاسبي » في المسائل الكلامية معروف ، تحدث عنه « الشهرستاني »
وغيره ، ممن كتبوا في الملل والنحل ، وهو الرأي السلفي ، ولم تكن حملة

الإمام «أحمد» عليه ، لرأيه وعقيدته ، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان ، وإنما كان إنكار الإمام «أحمد» عليه للأسلوب والطريقة التي ينصر بها الدين . وما من ريب في أن ما قام به الإمام «المحاسبي» في الرد على المعتزلة وغيرهم ، من أهل الانحراف : إنما هو في الوقت نفسه انتصار للإمام «أحمد بن حنبل» ، وتقوية له ، وعون على بلوغه غايته رضي الله عنهما . أما كتبه في أدب النفس وتركيتها ، وفي الإنابة إلى الله ، والرجوع إليه وفي الرعاية لحقوقه ، وفي التصوف على وجه العموم ، فقد بقى منها كثير ، عرفنا منه جملة صالحة ، لا تزال مخطوطة ، وطبع البعض في أوربا والقاهرة ، وسوريا ، ومن كتبه المخطوطة في دور الكتب :

١ - كتاب المسائل في الزهد .

٢ - فصل من كتاب العظمة .

٣ - كتاب في المراقبة .

٤ - أحكام التوبة .

٥ - كتاب العلم .

٦ - كتاب الصبر والرضا .

ومن كتبه المطبوعة :

كتاب التوهم :

أول ما طبع للمحاسبي : «كتاب التوهم» طبع في القاهرة سنة ١٩٣٧ م وقد عني الدكتور أ. ح . أربري - بتحقيقه وكتب مقدمته الدكتور «أحمد أمين» ، وفي المقدمة يقول عن الكتاب :

« نحافيه منحىً طريفاً ، يدل عليه اسمه ، فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار في الخوف والرجاء ، كما فعل غيره ، بل استعمل توهمه - وبعبارة أخرى خياله - في وصف شعور أهل الجنة ، وأهل النار ، وما يلقون من : سعادة وشقاء ، ونعيم ، وعذاب ، وأسلس لخياله القياد ، فتخيّل ما تخيل وصوّر ما صوّر ؛ فهي لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها ، وأرواية رائعة لكاتب جمّل منظرها ، وفصّل مواقفها ، وصقل لغتها ، حتى يؤثر بالحقيقة التي تتضمنها في نفوس القارئ ، والسامعين ، أكبر الأثر وأبلغه . »

رسالة المسترشدين :

وطبع له في حلب « رسالة المسترشدين » حققه وخرّج أحاديثه ، وعلق عليه ، « عبد الفتاح أبو غدة » .
وهذه الرسالة اللطيفة الحجم ، يوجه فيها « المحاسبي » ، الإرشاد للمسترشدين ، الذين يريدون أن يكونوا من ذوى الأبواب ، العالمين بالله وبأمره ومنهاج ذوى الأبواب - كما تحدده الرسالة - إنما هو رعاية مصادر الشريعة ، من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة ، وهذا هو الصراط المستقيم ، الذى دعا الله إليه عباده ، وقال عز وجل :
« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْشَوْا بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَمُ صِرَاطُكُمْ بِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ».

والرسالة إنما هى إرشادات توضح بعض زوايا هذا المنهج ، فهى تتحدث عن التوبة والتقوى والخطرات والخوف من الله ، والصبر والرضا ، وغير ذلك من أحوال اللائذين إلى الله ، السالكين إليه .

كتاب الوصايا :

وطبع له فى القاهرة أخيراً : « كتاب الوصايا » ، تحقيق وتقديم : « عبد القادر أحمد عطا » ، والعنوان مكتوب هكذا : « الوصايا : أو النصائح الدينية ، والنفحات القدسية ، لنفع جميع البرية » . وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق ، وإن كان على صورة أوسع ، وبأسلوب بين الحدة ، وهو أقل تعمقاً وجزالة من أسلوب الكتاب السابق .

كتاب الرعاية لحقوق الله عز وجل :

وكتاب الرعاية : هو أكبر الكتب التى بين أيدينا من كتب « المحاسبي » ، مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة ، وربما لا يوجد فيها فقد من كتبه ما هو أكبر منه ، ويقع فى حوالى أربعمائة وستين صحيفة وهو على كل حال أهم كتبه ، فى نظر القدماء والمحدثين ، حتى لقد عرف به ، وإذا لم يذكر أحد المؤرخين القدماء من كتب « المحاسبي » إلا كتاباً واحداً : فإنه يكون الرعاية ، وهو بالنسبة « للمحاسبي » ، كإحياء علوم الدين

بالنسبة للغزالي ، وقد حاول المحاسبي أن يشرح فيه الطريق الذي يحقق الرعاية لحقوق الله تعالى .

وقد بلغ في تحليل نزعات النفس ، ونزعات الهوى ، حداً لا يجارى ، يقول الأستاذ « مسينيون » عن هذا الكتاب .

إن المحاسبي : سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا تجد لها مثيلاً في الآداب العالمية إلا نادراً .

وحينما قرأه المرحوم : « الشيخ زاهد الكوثرى » ، قال معبراً عن حقيقة ظاهرة :

لقد كان أثر الإمام المحاسبي على الإمام « الغزالي » كبيراً ، لقد تبطن الإمام « الغزالي » كتاب الرعاية ، في كتابه : الإحياء .

المسائل في أعمال القلوب والجوارح :

وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة ، فحققه الأستاذ « عبد القادر أحمد عطا » ، والكتاب بحوث مفصلة في الكلام عن إدخال السرور على المسلم ، والإسراع بالعمل والجهار به ، وطلب الشهرة بالعمل ، أولزوم الإدارة والكلام عن الغرور ، والحديث عن النوافل ، وأعمال القلوب ، والمواعظ المطلوبة ، والجدال المزدول ، والتفويض إلى الله في كل الأمور ، والحديث عن النفس ، وألوان الغفلة التي تعثر بها ، وحدود النظر الجائر من الحرام ونختمه بحديث عن الندور .

وأسلوب الكتاب أسلوب علمي تحليلي ، يسرى فيه الحماس ، وتبدو روح « المحاسبي » اليقظة المتوثبة . .

كتاب أدب النفوس :

وهو كتاب يفهم موضوعه من عنوانه ، إنه في أدب النفوس وفيه يشرح « المحاسبي » الطريق التي يتخذها الإنسان لتهديب نفسه وتركيتها وهو في رسمه لهذه الطريق يتبع السنن الإسلامي .

وإذا كان يرسم الطريق فإنه أيضاً يتحدث عن الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الإنسان حتى يكون في مرضاة من الله وفي نعمة منه .

كتاب فهم القرآن :

ولقد كان يظن ، إلى عهد قريب ، أن كتاب « فهم القرآن » قد فقد ، وكان الأسف عليه شديداً ، ثم كان السرور حينما أعلن أن الكتاب موجود وحينما أخرجه الدكتور « القوتلي » في ثوب أنيق معلقاً عليه ، ومقدماً له ، ونشره مع كتاب « مائة العقل » للمحاسبي أيضاً في مجلد واحد فجزاه الله خيراً .

أثر « المحاسبي » في الفكر الإسلامي :

إن تأثير « المحاسبي » في الأجيال التالية له : لا ينكر ، إنه من الواضح ، أن تلميذه الأكبر - وإن لم يلتق به - كان الإمام « الغزالي » .

إن الإمام « الغزالي » ، يعترف بأنه قرأ كتب « الحارث المحاسبي » .

قال ذلك في كتابه : « المنقذ من الضلال » ولقد قرأ أيضاً سيرة « الحارث المحاسبي » ، وتحدث عن الخلاف الذي كان بينه وبين الإمام « أحمد

ابن حنبل » ، ثم إنه نقل عنه في كتابه : « الإحياء » كثيراً من الآراء والنصوص .

وفي كتاب : « الإحياء » يقول عنه الإمام « الغزالي » ، دون تحفظ ولا استثناء ، هذا التقدير الهائل « المحاسبي » خير الأمة في علم المعاملة .

وله سبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه .
هذه الشهادة أو التقدير من الإمام « الغزالي » ، كان له أثر كبير في كتاب الإحياء ، فإن كتاب الإحياء : تضمن تقريباً كتاب : « الرعاية » ، وكلمة الشيخ « زاهد الكوثري » ، رحمه الله ، سبق أن ذكرناها إذ يقول :

« لقد تبطن الإمام « الغزالي » ، كتاب الرعاية في كتابه الإحياء .
ولكن أثر « المحاسبي » كان أيضاً كبيراً قبل الإمام « الغزالي » ، يقول السبكي عنه :

« عالم العارفين في زمانه ، وأستاذ السائرين ، الجامع بين علمي الباطن والظاهر » ، ويقول « الشعراني » عنه : « إنه : أستاذ أكثر البغداديين » .
لقد كان رحمة الله عليه أستاذ أكثر البغداديين ، وعالم العارفين في زمانه ، وامتد تأثيره إلى الإمام « الغزالي » وإلى الصوفية من بعده ، واستمر هذا التأثير قرناً ، فقرناً ، واستمر تقدير علماء الصوفية له قرناً ، فقرناً ، حتى إذا كان القرن الحادي عشر الهجري ، وكان المناوي صاحب التآليف الكثيرة المشهورة المعروفة كتب عن « المحاسبي » في كتابه :

« الكواكب الدرية » يقول :

« المحاسبي » البصري : علّم العارفين في زمانه ، وأستاذ السائرين في أوانه ، عالم سارفيننا فضله ، وصوفي طارنبه ، برع في عدة فنون ، وتكلم على الناس فأراهم الجواهر المكنون ، وأحيا القلوب بوعظه ، وشنّف الأسماع بدّر لفظه ، تصانيفه مدونة مسطورة ، وأقواله مبنوبة مشهورة ، وأحواله مصححة مذكورة ، وكان في علم الأصول راسخاً راجحاً ، وعن الخوض في الفضول جانحاً ، وللمخالفين الزائفين قامعاً وناطحاً ، وللمريدين مريباً وناصحاً .

قال « التميمي » :

« هو إمام المسلمين في الفقه ، والتصوف ، والحديث ، والكلام » .
وقال غيره :

« وله المصنفات النافعة الجمّة ، بحيث تبلغ نحو مائتي مؤلف ، وناهيك برعايته ، وكتبه في هذه العلوم ، أصول لمن صنف فيها » .

وقال في الإحياء :

« المحاسبي » خير الأمة في علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه » .

على أن التقدير الذي نحب أن نعيد تسجيله هنا : هو ما كتبه ، الأستاذ « لويس مسينيون » عن كتاب : « الرعاية في كتابه مصطلحات التصوف » .

إن « المحاسبي » : سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً في الآداب العالمية إلا نادراً .
 رحم الله تعالى ، الإمام « المحاسبي » رحمة واسعة ، ونفعنا بما تركه لنا من تراث روحى مجيد .

التوكل

وننقل هنا أيضاً من الرسالة موضوع « التوكل » وذلك لما يحصل فيه من جدل بين الناس الذين يبحثون في موضوع الروحانيات :
 التوكل يفيد ثقة المؤمن المطلقة في الله ، ويقينه بأن أى الأعمال في هذه الدنيا لا يغير من المصير المحتوم .
 وهو مفهوم يمكن تطبيقه في سائر الأحوال ، ويؤمن به المسلمون جميعاً .

وحديث التوكل في المؤلفات الإسلامية ، يشتمل دائماً وفي كثير من التفصيل على مسألتى المال والكسب الحلال . هل يتعارضان مع التوكل ؟

وإذا وثق العبد في الله ، وآمن بمصيره ، أى : أيقن بأنه صائر - لا محالة - إلى ما قدره له الله منذ القدم ، وأنه نائل نصيبه المحتوم ، من الخير أو الشر ، ومن الغنى أو الفقر ، بإرادة الله ، وأن العمل - قلّ أو كثر - لن يغير شيئاً مما سوف يكون ، ومما كتبه عليه يد الله من قبل أن ينشئ العالم ، إذا أيقن المؤمن بذلك كله ، فكيف لا يكون سعيه إلى ما ضمنه له الله من رزق نقصاً في العبادة ، وإهمالاً لحقوق الله ؟

ولقد أثارت المسألة جدلاً مستفيضاً بين الكثيرين من الصوفية ،
والفقهاء .

وكتاب « تلبيس إبليس » يبين مدى ما وصل إليه هذا الجدل ،
من عنف وحدة .

ونريد قبل كل شيء إيضاح بعض جوانب موقف الإسلام من
القضية .

إن المال يحتل مكاناً هاماً من نصوص القرآن ، والأحاديث ،
والفقه .

ففي القرآن نجد تنظيماً وتشريعاً للميراث ، والأحاديث تكمل
نصوص القرآن في ذلك ؛ وكل كتاب فقه إسلامي يتضمن فصلاً
مطولاً في الإرث .

كذلك نجد في القرآن والأحاديث تشريعاً للزكاة ، وللوصية
وللصدقة ، وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالمال .

اعترف الإسلام - إذن - بمنافع المال ، وأهمية دوره ، فلا غرابة
في أن يبحث على العمل ، وهو وسيلة اكتساب المال . وأغلب أصحاب
الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا من ذوى المهن أو الوظائف .

ولكن القول بأن للمال أهمية زائدة في المفاهيم الإسلامية خطأ فاحش .
فالمال ، مهما كان أمره ، ليس في الواقع إلا جزءاً من القيم المادية
الفانية في الحياة الدنيا ، والسعى لاكتسابه وإن سمح به الدين وحث
عليه بل أوجبه فإنه لا يداني في شيء مسعى الإنسان إلى اكتساب القيم
الروحية ، التي لا تفنى ، والمتعلقة بالعالم الآخر .

وعلينا ألا ننسى أن الإسلام دين ، وأن « محمداً » صلى الله عليه وسلم نبي ، ولا يمكن أن يكون للدين وللنبي صلى الله عليه وسلم هدف ، إلا ما سما إلى الله والآخرة .

والمال - في حد ذاته - ليس بذلك ، والهدف الحق للإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم ، نجاة الإنسان ، ومن أجل هذا كان الاهتمام بالمال منصباً على تحويله إلى أداة لخير الإنسان ، وعلى تحويل شهوته الدنيئة في قلب الإنسان إلى التراحم ، والإنفاق في سبيل الله .

وهذا هو السبب لما نجده في القرآن من وعيد متكرر ، للذين يكتزون الذهب والفضة ، أو الذين يلهمهم حب المال عن القيام بحقوق الله .

ولعل « أبا ذر » الذي قيل عنه إنه أول شيوعي في الإسلام لم يتعد كثيراً عن المفاهيم الإسلامية ، حين كان يحمل في مواعظه على بذخ بلاط « معاوية » وإسراف الأمراء .

وكان شعاره الآية القرآنية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

فإنفاق المال في أغراضه الصحيحة ، لا يمكن أن يكون إلا وسيلة لبلوغ الأهداف العليا الرفيعة ، واستخدامه في أغراض دنيا يؤدي بالإنسان إلى الانسياق في سبيل الشيطان ، ولا بد للإسلام كدين أن يذمه في هذه الحال .

والعمل لاكتسابه مسموح به ، بل هو مطلوب مادام حلالاً .

أما العمل لاكتسابه من غير الطرق الحلال ، فهو أمر ينهى عنه الإسلام في قوة ، ويتوعد من يقوم به ، بشر العقاب في الدنيا والآخرة .
والخلاصة هي أن الله أمر بالضرب والمشى في مناكب الأرض ، والسعى في أرجائها ، لاكتساب المال ، ولقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفقر ، وقال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ولكن ذلك كله مشروط بأن يكون الكسب حلالاً ، وألا يتسم بالجشع ، أو بالحسد ، أو بالحرمة .

ولنعرض الآن ، وعلى ضوء ما تقدم ، موقف المحاسبي من هذه المسألة :

إنه يقول في كتابه « المكاسب » :

فأخبر - جل ثناؤه - بقسمة الرزق بين خلقه ، وتوليده ذلك في مواضع - من كتابه جل وعز - كثيرة ، ثم دعا الخلق سبحانه - إلى التوكل ، بعد أن أعلمهم بكفالاته لهم ، وتقسيمه بينهم .
فأوجب - جل وعز - التوكل ، وفرضه على الخلق .

فهل نفهم من ذلك : أن كل عمل للإنسان - سعيًا وراء رزقه الذي قسمه الله ، وتولاه ، يعتبر في الإسلام نقصاً في التوكل ، وذنباً ؟
يجيب « المحاسبي » على هذا التساؤل بالنص قائلاً : « فالذي يجب على الناس في جملتهم من التوكل المفترض عليهم : التصديق لله جل وعز ، فيما أخبر من قسم ، وضمان الكفاية ، وكفالتها في سياقة الأرزاق إليهم ، واتصال الأقوات التي قسمها في الأوقات التي وقها ، بتصديق تقوم الثقة به في قلوبهم ، وتنتفي به الشكوك عنهم ، والشبهات ، ويصفو به

اليقين ، وثبت به حقائق العلم أنه الخالق الرازق ، المحيى ، المميت ، المعطى ، المانع ، المتفرد بالأمر كله ، فإذا صح هذا العلم فى القلوب ، وكان ثابتاً فى عقود الإيمان ، تنطق به الألسنة إقراراً منها بذلك لسيدها ، وترجع إلى ذلك بالعلم عند تذكرها ، وقع الاسم عليها بالتوكل . وعلى أى حال ، فإن عامة الناس ، إذا خرجوا بالذكر فى وقت الطلب أذعنوا بالقلوب ، والألسنة أنهم لا يصلون إلى شىء من ذلك بالحيلة ، وأن الحركة غير زائدة لهم فى أنفسهم ، ولا موصلة لهم إلى الزيادة . والعمل والسعى للرزق ليسا سوى : حركات الطبع الذى عليه البنية ، وهذا من خلق الله فى العباد وإن لم تزل حركات الطباع وما فى الخليقة من محبة الكثرة ، وتعجيل الوقت ، والتسبب إليه بالأسباب فلم يزل الله سبحانه عنهم اسم « التوكل » .

لأن ما فى الطباع من الحركة لا يخرجهم مما أوجبنا من التصديق لهم ، لأن الله لم يستعبدهم بإزالتها وإنما استعبدهم بإقامة الطاعة ، وأخذ الشىء من حيث أباح أخذه .

أما ما حرمه الله على العبد من الحركة ، فهو التعدى لما أمر الله والتجاوز لحدوده ، وذلك أن الله سبحانه لما فرض التوكل على خلقه ، وأباح لهم الحركة فى ذلك ، ولما غيب عنهم التفرس من محبة تعجيله ، حدد للخلق حدوداً فى الحركة ، وفرض عليهم فروضاً أحكمها .

فإن خالفوا ذلك ثبتت عليهم بخلافه الحجة . فمن كانت حركاته فى طلب الرزق ، على ما وصفنا ، كان لله جل وعز بذلك مطيعاً ، محموداً عند أهل العلم ، ولكن هناك من مراتب « الحركة » الإنسانية

ما هو « أرفع في الدرجة ، وأعلى في الرتبة » فإن السعى للرزق أمر حلال ، ومحمود ، ولكن السعى من أجله مع إحكام فرض التوكل في أصله ، والزيادة في العمل بالمعرفة لله ، ومع طهارة القلب وإدامة الذكر ، وكثرة التقرب إلى الله بالنوافل فذلك هو حقيقة التوكل ومحكمه ، والتعالى في ذروة ما أقيم فيه الأنبياء والصديقون وخواص المؤمنين .

أما الدلائل على أن الحركة في طلب الرزق أمر حلال محمود ، فهي كثيرة ، وفي وجوه عديدة ، ونجدها في القرآن والحديث وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وسير الصحابة .

ففي القرآن نرى مثلاً : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » . وفي الحديث : ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه .

« كنت أرى الغنم لأهل مكة بالقراريط » .

وفي القرآن قصص لأنبياء كانوا يحترفون مهناً ، منهم « موسى » و« داود » .

ومن الحديث « أطيب ما أكل المؤمن من كسبه » .

وفي حديث يقول عنه « المحاسبي » إنه :

لا يدفعه أهل العلم والنقل ولا أعلمهم يختلفون فيه » أما الدلائل المستخلصة من سير الصحابة ، فيأتي بها « المحاسبي » بعد فصل طويل في امتداح أخلاقهم ، ويبدأ كعادته بذكر الخلفاء الأربعة الأول .
فقد كان من « أبي بكر » لما استخلف :

أن رأى الكسب على عياله أفضل الأعمال ، وأوصل القربة وأعلى الطاعة
فمضى إلى السوق مكتسباً عليهم ، فأدركه أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وكلموه في ذلك ثم فرضوا له فرضاً رضى به ،
وإنما كان ذلك الرضى منه حتى يفرغ لأمر المسلمين ، ويولى
أمتهم كل عنايته . وكذلك كان « عمر بن الخطاب » . إذ رأى بعد
استخلافه أنه لم يعد يجد من الوقت ما يسمح له بالكسب إلا إذا أهمل
الأمانة . التى وقعت عليه ، فكان يأخذ ما يعفه بقوله .

ثوبين للشتاء والقيظ ، وظهراً أحج عليه ، وقوت رجل من قريش
ليس بأوضعهم ولا بأرفعهم ولكنه كان مع ذلك يتساءل .
والله ما أدري أيحل لى أم لا ؟

وقد سار « عثمان » و « على » من بعده على نهج « أبى بكر » و « عمر » .
ويروى « المحاسبي » بعد ذلك قصة « عبد الرحمن بن عوف » إذ آخى
النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين « قيس بن الربيع » عرض « قيس »
على « عبد الرحمن » نصف ما يملك ، وكان مال « قيس » ، المان
الصامت ، الذى يرغب فى مثله ، ولكن « ابن عوف » رفض قائلاً :
لا حاجة لى بذلك ، دلتنى على السوق . ومضى إلى السوق متكسباً
على نفسه ، وذلك لما عند « عبد الرحمن » من فضل الكسب ، وفضل
الحركة لطلب الثواب .

وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أفضل ما أكل
الرجل من كسبه » .

فآثر « عبد الرحمن » الكسب ، على مال طيب ، عرض عليه من

غير مسألة ، ولا إشراف من نفس .
تلك هي الأدلة التي يسوقها « المحاسبي » ، وقد استخلصها من
الكتاب والسنة ، وفعل أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ويختم حديثه عنها بقوله : والأخبار في هذا والاحتجاج بها كثيرة .
وفما أوردنا وذكرنا من ذلك كفاية إن شاء الله . والحركة للكسب .
إذن . ليست حراماً إنها حلال ، بل هي فرض ، على العباد .
« المحاسبي » في كتابه « رسالة المسترشدين » يوصي المؤمن بالألا يجعل
نفسه قط عالة على الآخرين . وذلك أن العبد إذا جعل نفسه في وصاية
غيره فقد حرّيته في الدعوة إلى الحق ، متترهاً عن الرياء .
وفي وصاياه الخاصة بالسلوك اليومي للعبد ، في مختلف مؤلفاته ،
يفرد « المحاسبي » مكاناً للكسب والعمل .
ففي كتاب « الرعاية » يحدثنا مطولاً عن العمل الذي يحبه الله من
العبد ، وفي كتاب : « المسائل في الزهد » يذكر الحديث التالي للرسول
صلى الله عليه وسلم :
« الساعي على الأرملة ، والمسكين ، كالمجاهد في سبيل الله ، القائم
ليله ، والصائم نهاره » ويقول « المحاسبي » :
فأفضل الأعمال لكل أهل زمان ما كانت عليه الأوائل من تعليم
السنن والعطف على أهل العدم ، لأن الله الغني الحميد لا ينتفع بطاعة
ولا تضره معصية ، وإنما أمرك بطاعته لينفعك ، فأحب الأشياء إليه من
طاعته ما عاد نفعه على غيرك . بل إن السعي للرزق فرض على المؤمن في
كثير من الأحيان ، وتركه ذنب كالسعي في رزق الأب والأم ، والزوجة »

والأولاد المعوزين ، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء شراً أن يضيّع من يعول ؟ » .

ويعلق « المحاسبي » على هذا الحديث قائلاً :

ولا يكون قول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، وهو لا يجب عليه عيلتهم ، ولا حينما تكون عيلتهم تطوعاً منه يتطوع به ، لأن الشر بلاء واقع ، وعقوبة نازلة ، والله جل ثناؤه لا يعاقب على ترك ما لا يجب .

وعلى أى حال ، فلم يختلف المسلمون فى أن مثل هذا السعى واجب عليهم . . والمحاسبي لا يكتفى بأن يسوق الأدلة والدفاع عن هذا الرأى ، وإنما يقوم بنقد من يحرمون الكسب . . فيقول بأن هناك أقواماً يزعمون أن السعى للرزق يتعارض مع التوكل ، وهم فى الواقع إنما جهلوا حقيقة السنة ، وسير الأنبياء فى كل زمان مما يرويه لنا القرآن . .

فمن ذلك ما زعم « شقيق » ، وذلك أنه قال :

لما ضمن الله تعالى الرزق والكفاية كانت الحركة شكاً فيما ضمن فحمل الأمر فى ذلك على رأيه ، فخالف الكتاب والسنة ، وما عليه أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجملة التابعين من بعدهم . . ويتابع المحاسبي نقده للفرق الأخرى القائلة بعدم التكسب ، وذلك بأسلوب غاية فى التشويق ، معتمداً على الكثير من الأدلة والبراهين غير تلك التى ذكرناها فيما سبق ، ولذلك لا نرى أن هناك أى مجال للاختلاف حول اراء المحاسبي فيما يتعلق بالكسب .

وكتابه « المكاسب » الذى اعتمدنا عليه أساساً فى بحثنا قد ألف فى فترة متأخرة من عمره ، بعد بلوغه الرابعة والخمسين . .

فهو - إذن - يعبر عن آرائه في فترة النضوج ، بل يمكن القول إن الآراء التي ضمنها هذا الكتاب هي آرائه النهائية في الموضوع .

* * *

وما سبق من العرض يتعلق كله بالكسب في الأرزاق الضرورية للحياة . .

ولنحاول الآن النظر فيما إذا كانت الحركة عامة - أو الحذر أو اليقظة أو التدبير - يتعارض شيء منها مع « التوكل » .
والمسألة هي مسألة الكسب نفسها ، وإن كانت مسألة الكسب أكثر تعقيداً . . فمن ناحية نجد الإرادة الإلهية الخالدة بما قدرته من مصير للإنسان لا مغير له ، ومن الجانب الآخر نجد الحركة والعمل من أجل إصلاح ظروف الحياة الإنسانية ، ومن أجل مجانبة الشر .

ولا نريد الإطالة في شرح موقفه المحاسبي ، ولا نحتاج إلى ذلك ، فقد كانت حياته كلها سعيًا إلى إصلاح الإنسان ، ومحاولة لتجنيبه الشر والنجاة منه ، ومؤلفاته بأكملها تعبر في قوة عن هذا الموقف .
ولنكتف: بذكر بعض النصوص ذات المغزى الواضح من كتابه « الرعاية » يدلنا فيها على المبدأ الذي يحكم موقفه من مثل هذه المسائل عامة . .

وفي هذا النص يتحدث « المحاسبي » عن « إبليس » ، وبينه القارئ إلى أن « إبليس » من عناصر الشر التي تدفع إلى ارتكاب الذنوب ، ويحذر منه ، ثم يتحدث عن قوم من أهل الشام يزعمون

أن الحذر من إبليس لا يصح . .

فالحذر لغير الله عز وجل نقص من اليقين والتوكل ، فالأولى الثقة بالله عز وجل واليقين ، لأنه لا ضار ولا نافع غيره . . .
ويرد « المحاسبي » على هذا القول بأنه غلط ، فالعبد لا يحذر « إبليس » إلا لأن الله أمره بذلك ، والحذر من « إبليس » لا يكون خوفاً منه ، فهو لا يغير مما أراده الله شيئاً ، وإنما يكون واجباً طاعة لله ، واتباعاً لأمره فيمن أمر بالحذر منه . .

أجل ، بل إن الأمر الإلهي بذلك نعمة على العبد وعون له .
ألم يحذر النبي بأمر ربه من أشياء أقرب إلى البشر من « إبليس » ؟ وهل كان نقصاً في التوكل أن أطاع النبي كلام الله ، إذ أمره بأخذ حذره من العدو ، وبصلاة الخوف في الحرب ؟
وهل كان نقصاً منه في التوكل أن قام بحضر الخندق .
إن اليقين ليحمر القلب بأن الله خالق كل شيء ، ومحرك كل شيء ولكنه أمر بأمور واجبة ، وتركها بزعم أنها نقص في التوكل عليه ليس سوى مخالفة لأمره .

فالطاعة - إذن - هي السبيل الصحيح :
وناقص اليقين من ضيع أمره إرادة كمال اليقين . . .
أما التعلق بالأسباب والعلل وعدم النظر إلى غيرها فذلك الغلط الذي يجب على المؤمن مجانبته . .

« كيف عرفت عبد الواحد يحيى » !!

« رينيه جينو »

إني لأذكر ذلك اليوم ، المشمس الجميل ، من شهر يونيو سنة ألف وتسعمائة وأربعين ، فقد صحت من نومي مبكراً ، أتأهب لخوض غمار معركة علمية هي : مناقشة رسالة الدكتوراه ، في جامعة « السربون » ، سرت في طريقي ، ميمماً شطر الجامعة ، وكنت أينما التفت ، لا أجد إلا وجوهاً يجللها الوجوم ، ونفوساً يعروها الذعر ، ويطاردها الخوف : فقد كان « الألمان » يحثون الخطى ، إلى قلب « باريس » ، ويدركون في عنف ، كل ما يعترضهم من قلاع وحصون ، ولكنني كنت مشغولاً عن هذا كله بما يتردد في نفسي ، ويجول بذهني من اعتراضات ستلقى ، ونقد سيوجه ، ووصلت إلى فناء السربون ، فإذا بي أجد صديقي « بول ريقوليتي » - وهو من الروس البيض ، الذين هاجروا إلى باريس - ينتظرني ، ويده كتاب هو « صوفية دانت » وطلب إلى أن أوصله إلى الشيخ « عبد الواحد يحيى » في مصر : إذ كان من المقرر عندي أن أسافر بخداة ذلك اليوم الذي تناقش فيه رسالتي ، حاولت أن أعرف من صديقي من هو الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، فأثر الصمت متعمداً ،

العودة إلى القاهرة

وانتهت المناقشة ، ومرت الأيام بخيرها وشرها ، وحلوها ، ومرها ، ووصلت في النهاية إلى القاهرة ، ولم يكد يستقر بي المقام فيها ، حتى يعمت شطر ضاحية « الدقي » باحثاً عن الشيخ « عبد الواحد » ، وفي شارع « نوال » (فيلا فاطمة) طرقت الباب : فأطلت الخادم التي أعطيتها الكتاب ، وطلبت إليها أن تستأذن في مقابلة الشيخ ، ثم وقفت أنتظر الإذن بالدخول ، فإذا بي أجد الخادم مقبلة تحوي ويدها مقعد من الخشب عليه مسحة الخشونة والشظف ، وتطلب إلى أن أنتظر هنيهة من الزمن .

وجلست أمام الباب في الشارع ، أنتظر الدقائق ممر ، والانتظار يطول ، أرى الخادم مقبلة فأهم للدخول ، ولكنها تطلب مني أن أنصرف اليوم ، غير مطرود ، وأحضر في الغد ، في الساعة الحادية عشرة فأنصرف متراخياً ، وفي نفسي دهشة ، وعلى وجهي شيء من طابع الخجل ، ومع ذلك فقد أثارت هذه الحادثة رغبتى في أن أرى هذا الشيخ ، الذى يضع الكرسي في الشارع للزائرين ، والذى يأمرهم بالانصراف اليوم ، ليحضروا إليه في الغد .

وحضرت من الغد ، في الموعد المضروب ، وكنت دقيقاً كالساعة ، وطرقت الباب وفي قلبي إشفاق وفي نفسي تطلع إلى الدخول ، ولم يكن حظى في هذا اليوم بأسعد منه في اليوم السابق ، فقد صُرفت ولكن لا

إلى موعد يبعث في النفس الأمل ، بل أبلغت عن لسانه بأن أكتب إليه ما أريد وهو يتولى الرد على ما أحب ،

وانصرفت بعد أن أضعت يومين في محاولة لقائه ، لم أكتب إليه ، وفيم أكتب إليه ؟ . . . ومرت الأيام ولم يزل من نفسى هذا التساؤل . . . من هو هذا الشيخ « عبد الواحد يحيى » ؟

وفي يوم من الأيام كنت أزور « « مسيو دى كومنين » مدير البعثة العلمانية الفرنسية بمصر ، وهو شخص له خطره وأثره ومكانته في الأوساط المصرية : وجرى الحديث على العادة في فنونه وشئونه : وإذا به يسألنى هل أعرف « رينيه جينو » ، فلما أجبت بالنفى ، أخذ يحدثنى عنه وعن اسمه الإسلامى :

« عبد الواحد يحيى » ، فحدثته بما كان بينى وبينه : فأخذ يرجونى فى أن أعود إلى محاولة لقائه من جديد ، وأن أستاذن له كذلك فى لقائه ، ولكننى مع ذلك لم أجد فى نفسى عزيمة تدفعها إلى إعادة المحاولة ، فقد كان الكرسي الخشب لا يزال ماثلاً أمام ناظرى . . . ومرت الأيام أيضاً ، وفى ذات يوم يحمل إلى البريد رسالة من أستاذ جليل يقول فيها : إن « مسيو هيكتور ماديرو » وزير الأرجنتين المفوض فى مصر قد زاره بمكتبه ، ورجاه فى أن يرشده إلى شخص يمكنه أن يتحدث معه عن الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامى ، ولم أجد من يصلح لهذه المهمة سواك ، وطلب إلى أن أقابله والتقيت بالوزير ، فكان أول ما يستفسر عنه : أتعرف « رينيه جينو » ؟ ومر بذهنى مرة أخرى الكتاب والكرسي الخشبي وحديث « مسيو دى كومنين » ، وذكرت كل ذلك للوزير ، وقال الوزير :

إنك قد وصلت إلى نقطة حاسمة ، هي معرفة بيته ، وفي هذا نصر عظيم ، إذ أن الصحفيين الفرنسيين والسويسريين ، وغيرهم يأتون إلى مصر ، فيجعلون من بعض مهامهم البحث عنه ، ويتجهون أول ما يتجهون نحو حي الأزهر ، وحي « سيدنا الحسين » أو السيدة « زينب » ولكنهم لا يعثرون له على أثر ، فيعودون وفي نفوسهم حسرة ، لأنهم لم يقضوا وطراً شهياً من زيارة مصر ،

وصبح منا العزم ذات يوم ، أنا « ومسيو ماديرو » ، على أن نخترق الحجاب المضروب بيننا وبين الشيخ « عبد الواحد » . . .

لا أزال أذكر ذلك اليوم ، وكان يوم أحد ، حيث وقفنا أمام باب (فيلا فاطمة) ندق الجرس ، وبعد برهة إذا شيخ طويل القامة ، يكاد وجهه يضيء نوراً ، عليه سمت المهابة ، وطابع الوقار والجلال ، تشع عيناه ذكاء وتنطق قسماته بالصلاح والتقى ، إذ بهذا الشيخ يفتح الباب بنفسه ، ويقف أمامنا وجهاً لوجه : فألقينا إليه بالسلام ، فرد التحية ، ثم سألنا عن مقصده فأبلغه الوزير سلام أحد أصدقائه ، فما إن سمع اسم صديقه حتى أذن لنا بالدخول ، ودخلنا والتزم الشيخ الصمت ، وقد كان من الممكن أن يكون الموقف حرجاً ، لولا دبلوماسية الوزير ، الذي أخذ يتحدث ويتحدث ، ذاكراً آراء الشيخ « عبد الواحد » ، مثنياً عليها مشيراً إلى دقتها ، كل ذلك والشيخ « عبد الواحد » صامت لا يكاد ينبس ببنت شفة ، وانتهت الجلسة ، وطلبنا إليه أن يسمح لنا بأن نعود لزيارته مرة أخرى : فأذن في تلطف وفي رقة .

وحين عدنا إلى المفوضية بعد لقائه ، قال الوزير : لعقيلته متبسّطاً :

لقد قابلنا اليوم شخصية هامة جداً : فمن تظنين ؟

- وزير الخارجية ؟

- أعظم ،

- رئيس الوزراء ؟

- أعظم ،

- الملك ؟

- أعظم ،

- ربنا ؟

- إنه على كل حال شخصية إلهية ، إنه « رينيه جينو »

فقالت في دهشة واستغراب : أحقاً ؟ يا لكما من سعيدين ، ولكنها ما لبثت أن ثارت ثورة عارمة : لم لم تأخذاني معكما ؟ ، واتجهت إلى زوجها قائلة : أنت تعلم أني في شوق شديد لرؤيته ، فلم لم ترع هذا الشعور ؟ وو . . .

وعدنا وتكررت الزيارة ، وتحدث الشيخ « عبد الواحد » وأفاض في الحديث .

وذكر لنا أن عزلته هذه إنما هي عزلة بالنسبة للمتطفلين ، الذين لا يرغبون إلا في إضاعة الوقت بالأحاديث الشخصية التافهة ، ولكنه وقد رأى فينا رغبة صادقة في المعرفة ، فليس بيننا وبينه - إذن - حجاب . واستطعنا بعد ذلك أن نخرجه من وكره ، وأن نصحبه إلى مسجد السلطان « أبي العلا » في الليلة الكبيرة من مولده ، وجلسنا في حلقة من حلقات الذكر ، فأخذ يهمهم في نفسه ويهتر ، ثم أخذ كلامه يبين .

واهتزازه يشتد : وإذا به يذكر مع الذاكرين في نبرة واضحة ، وفي هزة رتيبة ، ثم إذا به ينغمس في الذكر ويستغرق ، ولم أكد أنه بعد فترة حتى انتفض انتفاضة قوية ، خلت أنها انتفاضة العائد من آفاق قصبة مجهولة .

وتتابعت الأيام وسافر الوزير ومات الشيخ « عبد الواحد » ، ولم يبق في نفسي سوى الذكريات الجميلة ، ثم هيا الله لي أن أطبع « المنقذ من الضلال » للإمام « الغزالي » ، فقدمت له بمقدمة في منطق التصوف جعلت من بعض فصولها تلخيصاً لمقال عن التصوف ، بقلم الشيخ « عبد الواحد » . وقد نال هذا الفصل استحساناً كثيراً ، لدى القراء ، فشجعتني ذلك على أن أستفيض نوعاً ما في دراسة الشيخ فألفت كتاباً صغير الحجم عنه ، ضمته فيما بعد في كتاب « المدرسة الشاذلية » وذلك أن الشيخ رحمه الله كان شاذلياً .

الفصل الخامس

التجربة الكبرى



تجربتي في الحياة

وانتهت مرحلة التعليم بفرنسا وقد كتبت عنها ما يشبه التقييم لها ،
كتبت عنها مبيناً الأثر الذي تركته في نفسي لأول عهدي بها ثم مبيناً
ما كان بعد ذلك ثم وضحت النتيجة الموفقة التي انتهت إليها في نهاية
حياتي بها : كتبت كل ذلك بعنوان : « التجربة الكبرى »
وأقصد « بالتجربة الكبرى » : « تجربة الهداية »

إن الله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي :

« يا عبادي كلکم ضال إلا من هديته . فاستهدوني أهدکم » !

ويقول سبحانه لرسوله الكريم :

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » . ونحن
نمر بأمثال هذا الحديث الشريف ، وهذه الآية القرآنية الكريمة فلا نكاد
نعيرهما التفاتاً !

وما من شك في أن الكثير من الناس يسرون في الحياة حتى تنتهي
بهم ، فلا يثيرهم ، ولا يسترعى انتباههم أمثال هذه النصوص ، ومن
الناس من تشد هذه النصوص انتباههم في قوة لأنهم عاشوا حياة تتصل
اتصالاً وثيقاً بها !

إنهم يقفون طويلاً مرددين مع رسول الله صلى الله عليهم وسلم -

فما رواه الترمذى : عن أم سلمة أنه كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندها :

« يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك » .

ومعه صلى الله عليه وسلم في قوله - فيما رواه الإمام مسلم :

« اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا على طاعتك » .

وكنت أنا أحد هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله يضرعون إليه بهذا الدعاء ، وأحب أن أسير مع الأمر من ابتدائه .

نشأت^(١) في أسرة تتسم في الظاهر والباطن بالتدين ، وكان والدى رحمه الله يفرض جوالتدين في إرادة لا تلين !

لقد تعلم في الأزهر ، ثم استقر به المقام في القرية ، وكان معنياً بكل صغيرة وكبيرة من فروض الدين ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان يجد في ذلك مقاومة ، ولا معارضة ، فقد كانت والدتى رحمها الله تسير على غراره ، وتتبع هواه ، فتسير في تياره .

وحفظت القرآن الكريم في « كتاب » القرية ، ثم دخلت الأزهر ، وكانت أمورى في قراءتى ، وفي أفكارى تسير في الجوى العادى التقليدى . ثم كانت النقلة المفاجئة إلى فرنسا .

ومن أول يوم حلت فيه قدمائى أرض فرنسا ، بدأت المفاهيم والمبادئ عندى تأخذ مجراها فى مختبر النقد والتفكير ، ولكنها كانت فى صورة هينة سهلة ، بل يمكن أن أقول : إنها لذيدة ، . ومن أمثلة هذه الأمور

(١) أعتذر للقارئ عما وقع فى هذه الكلمة من تكرار طفيف لما سبق ولعله - فى إيجازه الموجز - يساعد على إيضاح ما أحبيت أن أعرف به .

الهيئة أنى رأيت النشاط يدب فى جميع مجالات الحياة ، ورأيت السرعة ،
 وحب السرعة ، والحرص على السرعة فى كل مجال ، وفى كل مكان .
 لقد رأيت الفتيات يمشين بسرعة ، ورأيتهن يتحدثن فى سرعة . وجال
 فى ذهنى ما كنا نقرؤه عن وصف المرأة الجميلة ، وأن من سمات جمالها
 ما يقوله الشاعر عن مشيتها وعن حديثها :

« مشى القطة ونطقها إيماء »

وأخذت أوازن بين مفاهيم الشعراء القدماء فى الجمال ، ومقاييسهم
 فيه ، فى المشى والحديث وغيرهما ، وبين ما أرى وأسمع ، واهتزرت نوعاً
 ما المقاييس القديمة ورأيت الرجال أكثر سرعة ، وأكثر نشاطاً وحركة ،
 وبدأت الحياة وكأنها سرعة ونشاط ، وقفز ، وابتعاد فى كل ثانية عن
 الماضى واستئناف فى كل لحظة للمستقبل ، وتجديد دائم لا يهدأ أو لا يفتر
 قط ، وتذكرت عند ذلك وصف سيدنا عمر من أنه : كان إذا مشى
 أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا تكلم أسمع .

ونعمت فى اللحظات الأولى من وصولى بهذا الذوق الراقى فى كل
 شيء ، وهذه النظافة التى تجدها أينما تسير : فى الشارع ، فى محلات
 البيع ، على وجوه الأطفال ، وعلى الملابس عند الكبار ، وعند الصغار
 على السواء وبهرتني الحضارة الأوربية فى مظهرها هذا الخارجى ،
 الذى يتمثل فى النشاط والنظافة والذوق .

وكان هذا الانبهار يجعلنى أعود إلى المفاهيم الإسلامية فى النظافة
 وفى الجمال وأستذكر :

« إن الله جميل يحب الجمال » .

« إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » .
 وقوله تعالى « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ
 الرِّزْقِ » .

وقوله سبحانه : « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » .
 وأتذكر هذا التراث الإسلامى الضخم ، الذى يتصل بالنظافة والنشاط
 والذى يعيشه الغربيون فى صورة واقعية ، فكانوا فى هذا كأنهم مسلمون
 مثاليين !

وأعود من الانبهار إلى الأسف ، على ما عليه المسلمون فى هذه
 المجالات ، مبتعدين عن الأوامر الإسلامية الصريحة
 ولكنى كنت أعود فأقول :

هذا المظهر الخارجى مادام مرتبطاً بالثقافة ودرجتها ، ومادام الإسلام
 قد حث عليه فى قوة ، ومادامنا آخذين بأسباب الثقافة فى عناية ظاهرة . .
 فإننا سنصل إلى ما نرضاه فيه ، إن شاء الله . وكاد هذا أن يجعل المجال
 الظاهر من الحضارة الغربية فى تصورى ليس بعيد المنال بالنسبة لنا
 نحن الشرقيين . .

ودخلت الجامعة ، وبدأت الدراسة فى علم الاجتماع و « علم النفس »
 ومادة « الأخلاق » « وتاريخ الأديان » ، وكانت هذه المواد يتزعم دراستها
 وتدريسها الأساتذة اليهود ، الذين تتلمذوا على الأساتذة اليهود !

وكانت هذه المواد كلها تسير فى تيار محدد ، هو : أنها « علوم
 مجتمع » أى أنها لا تتقيد بوحى السماء ، ولا تتقيد بالدين على أنه وضع
 إلهى : فهى تدرس فى موضوعاتها على أنها ظواهر اجتماعية ، وظواهر إنسانية .

وبدأنا في الدراسة نسمع مختلف الآراء ، في نشأة الدين ، ومختلف الآراء في تفسير النبوة ، وينتهي الأمر برأى الأستاذ في الموضوع . وليس في هذه الآراء على اختلافها وتعددتها - ما يتجه إلى أن الدين وحى من السماء ، أو أن النبي موصول الأسباب بالسماء ، وإذا انتظرنا من الأستاذ أن يُصحح الوضع ، فيدلى في النهاية برأيه مثبتاً الألوهية ، والنبوة ، هادماً للآراء الأخرى ، واصفاً لها : بأنها ضلال . . ! إذا انتظرنا ذلك منه فإننا نكون واهمين فإنه واحد من هؤلاء العشرات من الأساتذة في هذه المواد وما شابهها ، المنغمسين في تيار المادية .

لقد فسرت الجامعات الأوربية العلم على أنه القواعد التي تقوم على التجربة والملاحظة ، والتزمت أن تفسر وأن تشرح « علم الاجتماع » « وعلم النفس » . وجميع الظواهر في الآفاق . وفي الأنفس على هذا الأساس ، والتزمت ذلك أيضاً في تاريخ الأديان .

وهذه العلوم بالذات وفروعها تتكاتف لتقود الإنسان متعاونة متساندة إلى الإلحاد .

إن للدين - فيما يزعمون - نشأة إنسانية ، اجتماعية ، وإن للخلق - فيما يرون - نشأة إنسانية اجتماعية ، ولقد تواضع الناس على سلوك معين ، سموه « فضيلة » ، وعلى سلوك آخر سموه : « رذيلة » !
ودراسة الدين والأخلاق إذن تتجه إلى النشأة والمظاهر وعوامل التطور ، وظواهر التطور . . . وليس للسماء في الدراسة من نصيب ، إلا وصف لظاهرة نشأت في المجتمع !

وكل الظواهر والمظاهر في هذه الدراسات اعتبارية نسبية متغيرة

متبدلة لا تثبت على حال ، ولا تستقر على وضع ، لأنها في كل يوم تتبدل حالاً بحال . !

وهذه الأفكار تتكرر في هذه المواد : تسمعها في « علم الاجتماع » ، وتسمعها في « علم النفس » . وتسمعها في دراسة مادة « الأخلاق » ، وتسمعها في دراسة « تاريخ الأديان » ، وتسمعها في دراسة العلوم المتفرعة من كل ذلك . !

والشباب الذى انتقل من الأقسام الثانوية إلى الجامعة يتأثر بأستاذه . فإذا كان الأساتذة متكاتفين على هدم القيم الثابتة ، والمثل العليا التى يقررها الدين ، وتقررها « الأخلاق » .

فإن الطالب الذى يعيش فى أجواء تتعاون كلها على هدم عقائده ومثله وقيمه ينتهى به الأمر - فى الأغلب الأعم من الحالات - بأن تنهار هذه القيم فى شعوره .

ومن هنا كانت الظاهرة التى تجدها فى طلبة الجامعات فى أوروبا من الاستخفاف بكثير من العقائد ، وبكثير من القيم ، وينتهى الطالب بالإلحاد ، أو على أقل تقدير بالإيمان الكامن الذى لا فاعلية له ، ولا تأثير فى سلوك الإنسان .

وكنت - من غير مأسك - أضيق بكل ما يجرى فى هذه الدراسات ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمنى التفكير فى قيمة آراء الأساتذة أنفسهم فى هذه المواد .

وبدأت أفصل بين عالمين من المعرفة : عالم الماديات كالطب والطبيعة والكيمياء ، وهى أمور تحكمها التجربة ولا تتعارض مع الدين ، ولا

اختلاف فيها - وعالم التفكير المجرد في الدين والأخلاق والمجتمع وأخذت أدرس في أناة هذا الجانب الأخير من الزاوية التاريخية ، فوجدت أنه منذ أن بدأ التفكير ، بدأ في اللحظة الأولى الاختلاف فيه ، وبدأ كل زعيم من زعمائه ينتقد الآخرين في عصره ، وكل مفكرى عصر ينتقدون المفكرين في العصر السابق عليه . . . وهكذا الأمر !

وما من شك في أن هؤلاء الأساتذة الذين يدرسون لنا ينتقد بعضهم بعضاً ، في آرائهم ، ويخطئ بعضهم بعضاً ، كما ينتقدون السابقين عليهم ويخطئونهم ، وسيصنع من بعدهم صنيعهم فيوجهون إليهم النقد ويخطئونهم ، وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها !

لقد أخذ « دوركايم » اليهودى يعمل بمعاول هدامة في كل القيم ، والمفاهيم الدينية ، والأخلاقية ، وأخذ تلميذه الأكبر اليهودى « ليثى بروهل » ينهج منهجه ، ويسير على طريقه في « علم الاجتماع » ، وفي « علم الأخلاق » .

وكتاب « ليثى بروهل » : « الأخلاق وعلم العادات » مثل واضح لهذا النوع من هدم القيم . ومحاولة للقضاء على كل المثل ! فكرت إذن في اختلاف الآراء ، أو في هدم بعضها بعضاً في مواجهة كل ما يقوله الأساتذة .

وكنت أقول في نفسى - في مواجهة كل أستاذ - سيهدمك المعاصرون لك - وسيهدمك الذين يأتون من بعدك !

ولكنى في مواجهة كل هذه الآراء الإلحادية - كنت أتشبث بيقين لا شك فيه .

كنت أقول فى نفسى : إذا كانت الأخلاق نسبية ، فهل يأتى
الزمن الذى نعتقد فيه : أن الصدق رذيلة ، أو أن الشهامة شر أو أن
الشجاعة سوء ، أو أن العفة جريمة . . . أو أن كذا ، أو كذا . . !
ثم أعود إلى نفسى فأقول : كلا ! ! !

وأتساءل من جديد فى مجال العقائد : هل يأتى اليوم الذى لا نقول
فيه بوحداية الله ، أو لانقول فيه بإرادته وعلمه ؟ !
وأعود إلى نفسى وأقول : كلا !

كنت أحاول دائماً أن أردد أن هؤلاء القوم يسرون فى طرق لا تنتهى
إلى غاية . . . ما هدفهم من ذلك ؟

وما كنت أجِدُ الإجابة على هذا السؤال آنئذ ، لكنى عرفت فيما بعد
أن هذا هو المنهج اليهودى الذى رسموه بعد تفكير طويل ، والتزموا
القيام به بكل الوسائل ، أو بكل الطرق ، وهو منهج التشكيك فى القيم
والمثل والعقائد والأخلاق !

يستخدمون هذا المنهج فى المجالات المختلفة لإفساد المجتمعات
وتحللها أخلاقياً ، ودينياً ، ويضيفون إليه العمل على إثارة العمال على
أصحاب رؤوس الأموال ، وعلى إيجاد الضغائن والفتنة بين مختلف
فئات الشعوب ، والثمرة التى يعملون - دائبين - على الوصول
إليها : أن يكون المجتمع شاكاً ، مليئاً بالفتن ، وذلك سبيلهم إلى
السيطرة !

إن اليهود يهدفون من وراء كل ذلك إلى السيطرة على العالم ، وألا يقف
فى وجههم قوة من إيمان ، أو قوة من خلق ، ومن أجل ذلك تكاتفوا

على أن تكون لهم الكلمة الأولى في الجامعات ، في « علم الاجتماع » ، وفي « علم النفس » وفي مادة « الأخلاق » ، وفي « تاريخ الأديان » . ولم يكن من السهل على في أثناء هذه الدراسة الاستمساك . الوثائق بالقيم والمثل ، التي نشأت عليها ، ولولا عون من الله سبحانه وتوفيق منه ، لصرت كواحد من هؤلاء الآلاف الذين يدرسون في الجامعات الأوربية ، ثم يخرجون منها ، وقد تحطمت في نفوسهم المثل الدينية الكريمة . وانتهيت من هذه الدراسة . ثم كانت المرحلة التالية هي مرحلة « الدكتوراه »

وبعد تجارب هنا وهناك في مجالات مختلفة ، من الموضوعات ، وبعد تردد بين هذا الموضوع أو ذاك - هداني الله - وله الحمد والمنة - إلى موضوع التصوف الإسلامي .

ولم يكن ذلك مصادفة ، وإنما هي هداية وتوفيق من الله سبحانه وتعالى وهي عناية أعجز عن شكر الله سبحانه وتعالى عليها ! وانغمست في العنصر الأساسي في موضوع الرسالة ، وهو دراسة « الحارث بن أسد المحاسبي » .

انغمست في جو مجموعة من المخطوطات لهذا العالم الكبير ، والصوفي المستنير ، ورأيت أنه قد مرت به هو الآخر - فترة - من الضيق لاختلاف الآراء وتفرقها ، والحيرة في أيها الأحق وأيها الأصوب ؟ ثم هداه الله سبحانه إلى الطريق الأقوم ! ووجدت في جو « الحارث بن أسد المحاسبي » . الهدوء والطمأنينة ، ولكنه ليس الهدوء السلبي ، أو الطمأنينة المعتزلة المنطوية على نفسها ، ولكنه هدوء اليقين ، وطمأنينة الثقة بما يعلم !

فقد ألقى بنفسه في معترك المشاكل التي يثيرها المبتدعون والمنحرفون ،
وأخذ يصارع مناقشاً ، ومجادلاً وهاوياً ومرشداً ، متخذاً الأساس الأحصيل ،
والمصدر الأول : القرآن والسنة ، متخذاً ذلك مقياساً وحاكماً ، متحكماً
في كل ما يقال ، أو يفعل .

وانتهيت من دراسة (الدكتوراه) وأنا أشعر شعوراً واضحاً بمنهج
المسلم في الحياة ، وهو منهج : « الاتباع » !
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كلمة موجزة عن هذا المنهج هي :
إعجاز من الإعجاز ، إنه صلى الله عليه وسلم يقول :
« اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم »

وهي كلمة حق وصدق ، ثرية بالمعاني ، الطويلة ، العريضة ،
يبرهن آخرها على أولها ، والنهي في وسطها يبرهن عليه أيضاً آخرها : أي
اتبعوا فقد كفيتم ، والكافي هو الله سبحانه وتعالى الذي أوحى المبادئ
والأصول والقواعد ، وطبق رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك وبيّنه ،
فكان تطبيقه مقياساً وبياناً ومرجعاً يرجع إليه المختلفون !

« ولا تبتدعوا فقد كفيتم » : إن الذي يبتدع هو من لا كفاية له ،
ولكن الله سبحانه وتعالى بعد أن أكمل الدين ، وأتم النعمة ، فليس
هناك من مجال ، ولا من حاجة إلى الابتداع .

لقد كفانا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كل ما أهمنا من أمر الدين !
وبعد أن قرر هذا المنهج في شعوري ، واستيقنته نفسي ، أخذت
أدعو إليه : كاتباً ، ومحاضراً ، ومدرساً ، ثم أخرجت فيه كتاباً خاصاً
هو كتاب : « التوحيد الخالص . أو الإسلام والعقل » .

وما فرحت بظهور كتاب من كتبي ، مثل فرحى يوم ظهر هذا الكتاب ، لأنه هو خلاصة تجربتي في حياتي الفكرية .
وكل ما كتبه عن التصوف ، وعن الشخصيات الصوفية فإنما يسير في فلك هذا المنهج : منهج الاتباع ! وهذا المنهج يفترض .

مقاومة الغزو الفكرى :

والغزو الفكرى له مجالات مختلفة :

١ - هناك الغزو الفكرى في العقائد ، يتمثل في كل هذا التراث الضخم ، الذى نقل إلى اللغة العربية فيما يتعلق بما وراء الطبيعة ، وهو تراث مختلف متعارض ، بل متناقض وهو نتاج بشرى ، يتسم بكل ما يتسم به النتاج البشرى من خطأ وضلال .

٢ - والغزو الفكرى في نظام المجتمع : الذى يحاول أن يفرض علينا نظام المجتمعات الأوربية !

وإذا نحن سرنا في تياره ، فإننا نصبح ولا شخصية لنا ولا ذاتية ونصبح وقد فقدنا رسالتنا التى كلفنا بتبليغها للناس ونشرها وهى رسالة الإسلام التى من أجلها كانت الأمة الإسلامية . وبدونها تصبح الأمة الإسلامية ولا مبرر لها !

٣ - والغزو الفكرى في مجال التشريع :

وهذا الغزو الفكرى في مجال التشريع توجد أسسه وأصوله بصورة مشروعة في مختلف الأقطار العربية ، ممثلة في كليات الحقوق التى

تنفق عليها الدولة وتعتمد شهاداتها !

وكليات الحقوق هذه دراستها كلها غزو فكري ، واستعمار فكري ودراستها كلها أثر من آثار الاستعمار ، التي لم تزل بعد أن زال الاستعمار . وإذا كانت الأمم الواعية تحاول جاهدة أن تتخلص من وصمة الاستعمار بما فيها من شرور ، ورجس ، وآثام ، فإن الكثير من الدول العربية لم تحاول أن تتخلص من وصمة الاستعمار الصارخة ، الواضحة الممثلة في هذه الكليات .

إن هذه الكليات تخصص عشرين ساعة في الأسبوع للقوانين الأوربية - أي للفكر الأوربي - في التشريع ، وتفرض على الطالب أن يذاكره ويستوعبه أو يحفظه ، ويتمثله ، وينجح فيه في الامتحان . أي أنها تفرض على الطالب أن يستعمر فكره الأوربيون ، في مجال التشريع ، وأن يلغى ذاتيته الإسلامية في هذا المجال ، وأن يكون تابعاً للأوربيين في هذا المجال ، مقلداً لهم ، تجرعه عجلتهم ، مستسلماً لغزوهم . وبينما تخصص هذه الكليات عشرين ساعة أسبوعياً للفكر الأوربي في التشريع ، إذا بها تخصص ساعتين فقط للتشريع الإسلامي ! ولو أن هذه الكليات في « فرنسا » أو في « إنجلترا » لما فعلت أكثر من ذلك ومنهج الاتباع : إذن - يقتضينا أن ننظر في جد في أمر هذه الكليات لتمثل الوطنية والإسلام والعروبة .

وبعد :

فإن منهج « الاتباع » هو الخلاصة الجوهرية لتجاربي الخاصة بالطريق الذي ينبغي أن يسلكه المسلم في حياته ، وإذا سار فيه المسلم

فرداً ، أو سار فيه المسلمون مجتمعاً ، فإن الله - سبحانه وتعالى - يكتب له الهدوء والطمأنينة والسعادة لأنه يكون في جو رباني مليء برعاية الله سبحانه وتعالى .

« وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (هذا وباللَّهِ التوفيق .

يتلوه بإذن الله

الجزء الثاني

فهرس

الصفحة

٧

* مقدمة

ربع قرن من حياتى . . تلميذاً

الفصل الأول

عن الحمد ١٣

الفصل الثانى

البيئة والنشأة ٢١

— حياتى ٢٣

— إبليس والإفساد ٢٥

— السرية المعلنة ٢٨

— النشأة ٣٠

— تحديد النسل فكرة منكراة ٣٢

— عزبة « أبو أحمد » ٣٦

— فى الكتاب ٣٨

— القرآن مصدر الهداية ٤٠

— فى المدرسة الأولية ٤٥

— الإسلام . . لكل زمان ومكان ٤٦

— أساس الإسلام وجوهره ٥٢

— الإسلام هو التوحيد ٥٨

الصفحة

- إسلام الوجه لله ٦٢
- في غيبة التشريع الإسلامى ٦٤

الفصل الثالث :

في الأزهر

- ٧٣
- ارتباط المعهد بالمسجد ٧٥
- الزواج المبكر عصمة وعفة ٧٦
- الاحتفال بزفافي ٧٧
- سعد . . عائد من المنفى ٧٨
- إضراب الأزهر ٧٩
- التحاق بمعهد الزقازيق ٨٠
- اتصالى بالصحافة ٨٠
- أمين الرافعى وصحيفة الأخبار ٨١
- مقالات الشيخ محمد شاكر ٨١
- شوق يرثى الرافعى ٨٢
- صحف . . تابعة . . وملحدة . . ومأجورة ٨٤
- حرية الصحافة ٨٥
- فصلت نفسى . . من المعهد ٨٧
- رسبوا جميعاً . . إلا واحداً ٨٨
- ألفية ابن مالك ٨٩
- الأزهر ٨٩
- أساتذتى فى الأزهر ٩٠
- * الشيخ محمود شلتوت ٩٠
- * الشيخ حامد محيسن ٩٠

الفصل الرابع :

[illegible]

الصفحة

١٢٣	الدراسة في فرنسا	-
١٢٥	من الليسانس إلى الدكتوراه	-
١٢٥	دكتوراه في « التصوف الإسلامي »	-
١٤٤	* كتاب التوهم	
١٤٤	* رسالة المسترشدين	
١٤٥	* كتاب الوصايا	
١٤٥	* كتاب الرعاية لحقوق الله عز وجل	
١٤٦	* المسائل في أعمال القلوب والجوارح	
١٤٧	* كتاب أدب النفوس	
١٤٧	* كتاب فهم القرآن	
١٤٨	* أثر المحاسبي في الفكر الإسلامي	
١٥٠	* التوكل	
١٦١	- كيف عرفت عبد الواحد يحيى « رينيه جينو »	
١٦٢	- العودة إلى القاهرة	
	الفصل الخامس :	
١٦٧	التجربة الكبرى	
١٦٩	- تجربتي في الحياة	
١٧٩	مقاومة الغزو الفكري	
١٨٣	- فهرس الكتاب	

رقم الإيداع	١٩٨٥ / ٢٤٩٣
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٢٤٩-٠

١ / ٨٥ / ١٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذا الكتاب

هذه حياتي عارية عن الزخرفة والتمسيق ، كتبتها صادقاً ، وأردت أن تكون بين يدي القراء ، لعلهم يجدون فيها عظة ، أو عبرة ، أو فائدة ، أو مجرد تسلية تسمو عن أن تكون تضييعاً للوقت .

وقصة حياتي هذه مجموعة تجارب وملاحظات ، أضعتها أمام القارئ ليرى فيها رأيه ، ناقدًا أو محبًا ، ذلك أنها لم تخل من آراء ، هي نتيجة للتأمل والتفكير المخلص .

ولقد كان توفيق الله سبحانه وتعالى في حياتي غامراً ، وكانت المقادير تسير بي في خط مرسوم . لو حاولت أن أختار خيراً منه ، لما استطعت .

ولو حاولت أن أحميد عنه لما استطعت أيضاً

ولو استقبلت من حياتي ما استدبرت ، لما اخترت حياة أخرى .

ولقد وقفت في فترات كثيرة على مفترق طرق ، كان بعضها براقاً ، وكان من الممكن أن أتجه هذه الوجهة أو تلك ، ولكن الله تعالى كان يختار لي
فالحمد لله .

